
في غابة الشياطين
كامل كيلاني

في غابة الشياطين

في غابة الشياطين

تأليف
كامل كيلاني



في غابة الشياطين

كامل كيلاني

رقم إيداع ٢٠١٢/١٩٢٠٤
تدمك: ٥ ٠٨٥ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

رسم الغلاف: ورود الصاوي.

المحتويات

الفصل الأول

غابَةُ الشَّيَاطين

(١) حَفْلةُ التَّتْويجِ

في لَيْلَةٍ مِنْ لَيالِي الصَّيْفِ البَهيجَةِ كانَ الشَّعْبُ الهِنْدِيُّ يُعِدُّ مُعِدَّاتِهِ فِي مَدِينَةِ «أَيُدْيا» الْمَحْبوبةِ — حاضرَةِ ممْلَكَةِ «كُوسالا» الشَّاسِعَةِ — لِيَحْتَفِلُوا فِي اليَوْمِ التَّالي بِتَتْويجِ أَميرِهِمْ «راما» الَّذي افْتَتَنَ الشَّعْبُ بِحُبِّهِ؛ لِما تَمَيَّزَ بِهِ عَلى أُمَراءِ عَصْرِهِ، مِنْ باهِرِ الْمَزايا، وَصالِحِ الْأَعْمالِ. وَقَدِ افْتَنَّ النَّاسُ في ذلِكَ أَيَّما افْتِنانٍ؛ فَعَلَّقُوا — في أَعالي الْأَشْجارِ — منَ الْمَصابِيحِ الْمُتَأَلِّقةِ أَشْباهَ الثُّرَيَّا الْمُنَوَّرَةِ، وَزَيَّنُوا مَعابِدَ الْمَدِينَةِ بالْأَعْلامِ الْخَفَّاقَةِ، وَعَطَّرُوا الْجَوَّ بالطِّيبِ الشَّذِيِّ، والبَخُورِ الذَّكِيِّ، والزَّهْرِ الْجَنِيِّ.

ولم يَبْقَ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَحَدٌ إِلَّا أَسْهَمَ في هذا الاحْتِفالِ العَظِيم، وباتَ يَتَرَقَّبُ فَجْرَ الْيَوْمِ التَّالي بِفارِغِ الصَّبْرِ.

وَلا عَجَبَ في ذلِك؛ فإِنَّ الشَّعْبَ قد أَحَبَّ أميرَهُ «راما» وَزَوْجَهُ الصَّغِيرَةَ «سِيتا» حُبًّا لا يُوصَفُ.

(٢) الْحاسِدَتانِ

كانَ الْأَميرُ «راما» وَلِيَّ العهْدِ. وقد أَرادَ والِدُهُ الشَّيْخُ الهَرِمُ — بَعْدَ أَنْ شَعَرَ بِضَعْفِ صِحَّتهِ وَعَجْزِهِ عَنِ الْقِيامِ بِأَعْبائِهِ — أن يَتخَلَّى عَنِ المُلْكِ، وَيَعْهَدَ بِأَمْرِهِ إِلى وَلَدِهِ «راما» ابْنِهِ الْأَكْبَرِ. وَقَدْ فَضَّلَهُ عَلَى أَخَوَيْهِ «بَهاراتَ» و«لَكْشَمانَ»، وآثَرَهُ بِأَنْ يُقاسِمَهُ العَرْشَ في حَياتِهِ، لِيَخْلُفَهُ بَعْدَ مَماتِهِ. وَقَدْ أَحَبَّ النَّاسُ جَمِيعًا هذا الأَمِيرَ، ما عدا امْرَأَتَيْنِ أَوْغَرَ الْحِقْدُ صَدْرَيْهِما، وكادَ

الْحَسَدُ يأْكُلُ قَلْبَيْهِما. وَلَمْ يَكُنْ لِلْأَمِيرِ يَدٌ في تِلْكَ الكَرَاهِيَةِ الَّتي امْتَلَأَتْ بِها نَفْساهُما، وَلَا حِيلَةٌ في دَفْعِ أَذاهُما. أَمَّا هاتانِ الْمَرْأَتان، فَأُولاهُما: الْمَلِكَةُ «كَيْكِي» زَوْجُ أبِيهِ، والأُخْرَى: خَادِمُها العَجُوزُ الْماكِرَةُ «مَنْتارا». وكانَتْ هذِهِ العَجُوزُ وَفِيَّةً لِمَوْلاتِها، عَالِمَةً بكُلِّ أَسْرارِها، وَقَدِ انْطَوَى صَدْرُها عَلَى خُبْثٍ دَفِينٍ.

(٣) رَغْبةٌ خبيثةٌ



وَقَدْ وَقَفَتِ الْمَلِكَةُ وَخَادِمُها تَنْظُرانِ في تِلْك اللَّيْلَةِ — مِنْ نَافِذَةِ القَصْرِ — إلى شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ الَّتِي تَمُوجُ بالوُفُودِ الْقَادِمَةِ مِنْ بُلْدانِ الْمَمْلَكةِ دَانِيةً وقَاصِيَةً، وَهِيَ رَائِحَةٌ وَغادِيَةٌ، وَقَدْ عَلا وُجُوهَهُمُ الْبِشْرُ، وَازْدَحَمَتْ بِهِمُ الطُّرُقاتُ، وارْتَفَعَتْ — مِنْ أَلْسِنَتِهِمُ — الدَّعَواتُ،

فَصاحَتِ الْمَلِكَةُ «كَيْكِي» مُتَأَلِّمَةً: «واحَسْرَتاهُ — يا «مَنتارا» — عَلَى أَنَّ هذِهِ الْأَفْرَاحَ لَمْ تُقَمْ لِوَلَدِي «بهَاراتَ» بَدَلًا مِنْ «راما» ولَدِ ضَرَّتِي! وَلكِنْ هكَذا شاءَ حَظُّنَا الْمَنْكُودُ!»

فَأَجابَتْها «مَنْتارا»، وَعَلَى شَفَتَيْها ابْتِسامَةٌ خَبِيثَةٌ: «ما أَيْسَرَ هذا الْمَطْلَبَ، يا سَيِّدَتِي! وَما أَجْدَرَكِ بِتَحْقِيقِهِ! أَلَيْسَ وَلَدُكِ الْأَمِيرُ «بهَاراتُ» يَنْعَمُ — مِنْ حُبِّ أَبِيهِ المَلِك «دَسَراتا» وَرِعايَتِهِ — بِمثْلِ ما يَنْعمُ به أَخُوهُ «راما» وَلِيُّ الْعَهْدِ؟»

فَسَأَلَتْها «كَيْكِي» مُتَعَجِّبَةً: «ما أَبْعَدَ ما تَظُنِّينَ! أَوَتَحْسَبِينَ أَنَّ زَوْجِي يَسْتَمِعُ لِي، إذا طَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يُتَوِّجَ وَلَدِي «بهَاراتَ» بَدَلًا مِنْ أَخِيهِ «راما»؟ بِأَيِّ مُحالٍ تَحْلُمِينَ؟»

فَأَجابتها «مَنتارا»: «هَوِّنِي عَلَيْكِ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ أَيْسَرُ مِمَّا تَظُنِّينَ، وفي قُدْرَتِكِ أَنْ تُدْرِكِي أَبْعَدَ مِمَّا تَطْلُبِينَ!»

(٤) حِيلَةُ الْعَجُوزِ

فَقالَتْ «كَيْكِي» مُتَلَهِّفةً: «كَيْفَ تَقُولينَ؟»

فابْتَسَمَتِ الْعَجُوزُ قائِلَةً: «ألا تَذْكُرِينَ ما أَسْلَفْتِهِ إلى الْمَلِكِ من صَنِيعٍ جَلِيلٍ في الْحَرْبِ الْماضِيةِ، مُنْذُ سِنينَ عِدَّةٍ؟ أَنَسيتِ أَنَّهُ قَدْ أَشْرَفَ — حِينَئِذٍ — عَلَى التَّلَفِ، لوْلا عِنايَتُك بِجراحِهِ؟ وَقَدْ عَرَفَ لِذلِكَ التِّرْياقِ، الذي بَلْسَمْتِ به جِراحَهُ، فَضْلَهُ الْعَظِيمَ في شِفَائِه، وَأَقْسَمَ — حِينَئِذٍ — لَيُظْفِرَنَّك بِأُمْنِيَّتَيْنِ في أيِّ وَقْتٍ تَشائين. أَتَذْكُرِينَ ذلِكَ؟ وَها أَنْتِ ذِي لَمْ تَطْلُبِي مِنْهُ شَيْئًا مُنْذُ ذلِكَ الْحِينِ. وَقَدْ جاءَ الْوَقْتُ لِتَحْقِيقِ أَحْلَامِكِ، فَلا تُضِيعي الْفُرْصَةَ.»

فَلَمْ تَدْرِ الْمَلِكَةُ كَيْفَ تُجِيبُ مِنْ شِدَّةِ الْحَيْرَةِ، وَلكِنَّ الْعَجُوزَ الْماكِرَةَ اقْتَرَبَتْ مِنْها، وَهَمسَتْ في أُذُنِها بِكَلِماتٍ قَلِيلَةٍ، أَوْجَزَتْ بِها خُطَّتَهَا الْمُحْكَمَةَ، فاقْتَنَعَتْ «كَيْكِي» بِما سَمِعَتْ، وَلَمَعَتْ عَيْنَاها، فَرِحَةً بِفَوْزِها الْوَشِيكِ. وَصاحَت قائِلَةً: «يا لكِ مِنْ حَكِيمَةٍ عاقِلَةٍ يا «مَنْتارا»! إِنِّي لِنَصِيحَتِكِ شاكِرَةٌ، وَلِفَضْلِكِ قَادِرَةٌ (مُقَدِّرَةٌ).»

(٥) الْأُمَنِيَّتانِ

وَكانَ الْفَجْرُ — حِينَئِذٍ — قَدِ اقْتَرَبَ، فَلَمْ تُضِعْ «كَيْكي» شَيْئًا مِنْ وَقْتِها؛ لِأَنَّ الاحْتِفالَ بالتَّتْوِيجِ يَبْتَدِئُ عَلَى أَثَرِ شُرُوقِ الشَّمْسِ. وَأَسْرَعَتْ إِلَى حُجْرَةِ الْمَلِكِ الْهَرِمِ — وَكانَ

مُضْطَجِعًا على وِسادَتِهِ — وصاحَتْ قائِلَةً: «أَذاكِرٌ أَنْتَ أَنَّنِي أَنْقَذْتُ حَياتَكَ مِنَ التَّلَفِ — مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ — حينَ داوَيْتُ جِراحَكَ في الْمَوقِعَةِ الْحَرْبِيَّةِ؟»



فَابْتَسَمَ لَها الْمَلِكُ، وَأَسْرعَ يُجِيبُها بقولِه: «كيفَ أَنْسَى لَكِ هذا الصَّنِيعَ، ولوْلا بَلْسَمُكِ العَجِيبُ لكُنْتُ من الهالِكِينَ؟ وَلَسْتُ أَنْسَى أَنَّنِي وَعَدْتُكِ حِينئِذٍ بِإِجابَتِكِ إِلَى أُمْنِيَّتَيْنِ تَطْلُبِينَهُما في أيِّ وَقْتٍ تَشائِينَ.»

فَحَنَتْ «كَيْكِي» رَأْسَها شاكِرَةً مَسْرُورَةً، فقال لها دُونَ أن يُخامِرَهُ شَكٌّ فِيما تُضْمِرُهُ: «تَمَنَّيْ عَلَيَّ ما تُرِيدِينَ، وإنِّي لَأُقْسِمُ بِوَلَدِي «راما» الْعَزِيزِ، إِنَّنِي لن أَتَأَخَّرَ عَنْ تَحْقِيقِ ما تَطْلُبِين، ما دام ذلِكَ في مَقْدُورِي.»

فَصاحتْ «كَيْكِي» مُنْتَصِرَةً: «امْنَحْنِي — إِذَنْ — هاتَيْنِ الرَّغْبَتَيْنِ، أَيُّها الْمَلِكُ: تَوِّجْ وَلدِي «بهاراتَ» هذا الْيَوْمَ، وَأَصْدِرْ أَمْرَكَ بِنَفْيِ «راما» إِلى غابةِ «وَنْداكَ»، مُدَّةَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ عامًا كامِلَةٍ.»

(٦) وعِيدُ الْمَلِكَةِ

وَما إِنْ سَمِعَ الْمَلِكُ هاتَيْنِ الأُمْنِيَّتَيْنِ الْخَبِيثَتَيْنِ، حتَّى تَمَلَّكَهُ الْغَضَبُ والْفَزَعُ، وكاد يُغْمَى عَلَيْهِ مِنْ فَرْطِ الْحُزْنِ والْهَلَع. وصاحَ في صَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ: «كيف تَقُولِينَ، أَيَّتُها الْماكِرَةُ؟ أَيُّ

ذَنْبٍ أَسْلَفَهُ إِلَيْكِ فَأَحْفَظَكِ عَلَيْهِ، فَتَمَنَّيْتِ أَنْ يُحْرَمَ الْمُلْكَ، ثُمَّ يُنْفَى إِلى غابَةِ الشَّياطِينِ؟ وكيف دارَ بِخَلَدِكِ أَنَّنِي سَأُجِيبُكِ إلى هذَيْنِ الْمَطْلَبَيْنِ الْأَثِيمَيْنِ؟»

فَأَجابَتْهُ «كَيْكِي» دُونَ أَنْ تَعْبأَ بِما قالَ: «لِيَكُنْ لَكَ ما تُرِيدُ! أَمَّا أَنا، فَلن أَتَأَخَّرَ عَنْ إِذَاعَةِ هذا السِّرِّ الْخَطِيرِ عَلى شَعْبِكَ؛ لِيْعرِفَ أَنَّكَ قَدْ حَنَثْتَ فِي وَعْدِكَ، ولَمْ تَفِ بِعَهْدِكَ. وسَيَعْلَمُونَ قاطِبَةً أَنَّكَ — وأَنْتَ الْمَلِكُ الْعظِيمُ — لم تَبَرَّ بِوَعْدِكَ الْمُقَدَّسِ. وحِينَئِذٍ يَنْظُرُ إِلَيْكَ شَعْبُكَ وشُعُوبُ الْأُمَمِ الْأُخْرَى كُلُّها نَظْرَةَ السُّخْرِيَةِ والاحْتِقارِ.»

(٧) قَسْوَةُ «كَيْكِي»

فَأَدْرَكَ «دَسَرَاتا» أَنَّهُ قدْ وقعَ في الشَّرَكِ، وأَصْبَحَ أَسِيرَ وَعْدِهِ، وَلا مَناصَ لَهُ مِنَ البِرِّ بعَهْدِهِ. وكيف وَقدْ أَقْسَمَ بِوَلَدِهِ الْعَزِيزِ أَنَّهُ سَيَمْنَحُها ما تَطلُبُ متَى أَصَرَّتْ عَلَيْهِ، مَهْما قَسَتْ في أُمْنِيَّتِها، وَتَغالَتْ في رَغْبَتِها. فَلَجأَ إِلى اللِّينِ — بَعْدَ الْعُنْفِ — وتَوسَّلَ إِلَيْها أَنْ تَسْأَلَهُ ما تَشاءُ، دُونَ أَنْ تُرْغِمَهُ عَلى نَفْيِ وَلَدِهِ «راما». ولكِنَّ «كَيْكِي» أبَتْ — لِغِلْظَةِ قَلْبِها وفَظاظَتِها — إِلَّا أَنْ يُبْعِدَ «راما» عَنْ حاضِرَةِ الْمَمْلَكَةِ إلى غابةِ «وَنْداكَ». وَإِنَّما أَصرَّتْ عَلى ذلكَ لِأَنَّها سَمِعَتْ أَنَّها مَأْهُولَةٌ بالشَّياطِينِ وَالْمَرَدَةِ؛ فإِذا نُفِيَ «راما» هناكَ أَربعةَ عَشَرَ عامًا لَمْ يَبْقَ أَمَلٌ في عَوْدَتِه حَيًّا. وَبهذَا تَضْمَنُ بَقاءَ ولدِها: «بَهاراتَ» جالِسًا على عَرْشِ «كُوسالا» لا يُنازِعُهُ مُنازِعٌ.

(٨) دَهْشَةُ الوُفودِ

ورأى «دَسَرَاتا» مِنْ إِصْرارِ «كَيْكِي» ما أَيْأَسَهُ، فاضْطُرَّ إِلى الْإِذْعانِ لِقَضاءِ اللهِ وَقَدَرِه، ولَمْ يَجِدْ مَفَرًّا مِنَ الْبِرِّ بِوَعْدِه والْوَفاءِ بِقَسَمِه. وَدَخَلَ غُرْفَةَ الاسْتِقْبال لِيَسْتَقْبِلَ الْمُهَنِّئِينَ — مِنْ أَعْيانِ الْأُمَّةِ وَسَرَاتِها — وَقدْ كادَ قَلْبُه يَنْفَطِرُ (يَنْشَقُّ) حُزْنًا وأَلَمًا.

وما كان أَشَدَّ عَجَبَهُمْ حِينَ سَمِعُوهُ يُعْلِنُ أَنَّ وَلَدَيْهِ «بَهاراتَ» و«راما» سَيَقْتَسِمانِ الْعَرْشَ.

فَتَهامَسَ النَّاسُ — وقد هالَهُمْ مَا سمِعوا — وَوَقَفَ الأَميرُ «راما» مُتَعَجِّبًا مِمَّا قال أَبُوه، فهتَفَ له السَّراةُ والأَعْيانُ، ورَدَّدَ هُتافَهُم جُمْهُورُ الشَّعْبِ الَّذِي سَرَى فيه الْخَبَرُ

سَرَيانَ الْبَرْقِ. وكان «راما» — إلى جَمالِ خَلْقِهِ — كرِيمَ النَّفسِ، نَبيلَ السَّجايا، مَطْبوعًا على الشَّجاعةِ والصَّراحةِ، فَسأَل أباه — في دَهْشَةِ الْمُعْتَزِّ بكرامَتِهِ — قائلًا: «هل غَضِبَ عَلَيَّ والدي العزيزُ — لِسَبَبٍ أَجْهَلُهُ — فاسْتَرَدَّ ثِقَتَهُ الَّتي كنتُ أَنْعَمُ بها؟»

فَلَمْ يَسْتَطِعِ الْمَلِكُ أن يُغالِبَ حُزْنَهُ، ويُخْفِي أَلَمَهُ الدَّفِينَ. فَقَصَّ عَلى وَلَدِهِ — بِمَحْضَرٍ من السَّادَةِ والرُّؤَساءِ — تفصيلَ ما حدثَ، والدُّموعُ تَنَحَدَّرُ من عَيْنَيْه، والأَسَى يَتَلَظَّى بين جَنْبَيْه. ثم خَتَمَ حَديثَهُ قائلًا، في لَهْجَةِ اليَائِسِ الْحائرِ: «يُؤْسِفُنِي أن أُفْضِيَ إِليكَ بِهذهِ الأنْباءِ الصَّاعِقَةِ. وَلَيْتَ زَوْجَ أبيكَ وَقَفَتْ عِنْدَ حِرْمانِك الْعرشَ؛ فقد أَبَتْ إِلَّا أن تُنْفَى إِلى غابةِ «وَنْداكَ» مُدَّةَ أربعةَ عشَرَ عامًا كامِلة.»

فصاح السَّامِعون في صوتٍ واحدٍ: «تَبًّا لِهذه القاسِيَةِ الآثِمَةِ!»

(٩) شَهامَةُ الْأَخَوَيْنِ

وهُنا أَقْبلَ الأَميرُ «بَهاراتُ» عَلى أَخيهِ «راما»، وأَمْسكَ بِيَدِهِ، مُقْسِمًا أَنَّهُ لن يَخْلُفَ أَباهُ عَلى الْعَرْشِ. ولكِنَّ «راما» أجابهُ مُتَأَسِّفًا: «كَلَّا، أَيُّها الأَخُ الْكرِيمُ الطَّاهرُ القلْبِ؛ فَقدِ انتقَلَ التَّاجُ إِلَيْكَ الآنَ، ولا بُدَّ منْ إِنْجازِ الْوَعْدِ الذي فاهَ بِهِ والِدُنا. وإِنِّي ذاهِبٌ — بِمُفْرَدِي — إلى غابَةِ «وَنَداكَ». وَلن أَعُودَ إلى «أَيُدْيا» قبل أَنْ تَنْقضِيَ أَربعةَ عشرَ عامًا كاملةٌ.»

(١٠) شجاعةُ «سِيتا» و«لَكْشَمانَ»

وَثَمَّةَ انْدَفَعَتْ إِليْهِما الأميرةُ «سِيتا» — وقد تَجَلَّى حُزْنُها العميقُ في عَيْنَيْها السَّوْداوَيْنِ — حتَّى قارَبتْ زَوْجَها «راما»، ثمَّ تَوَسَّلَتْ إليهِ ضارِعَةً أن يَأْذَنَ لَها في السَّفرِ معهُ إلى تِلْك الغابةِ؛ لتَشْرَكَهُ في ضَرَّائه، كما شَرِكَتْهُ في سَرَّائِهِ، فَأجابها «راما» — مُتلَطِّفًا — يقول: «ولكِنَّ غاباتِ «وَنداكَ» حافِلَةٌ بالأَخْطارِ والْمَفَزِّعاتِ، وفيها «رقانا» ملِكُ الشَّياطينِ الَّذِي طالَما سَمِعْنا بأَخْبارِهِ وَأَخْبارِ أَعْوانِهِ الأَشْرارِ، الْمُولَعِينَ بالْإِساءَةِ إِلَى الْأَبْرِياءِ وَالْأَخْيَارِ.»

فقاطعهُ أَخُوهُ الأَصْغَرُ، الأَميرُ «لَكْشَمانُ»، وكانَ أَكْثَرَ إِخْوَتِهِ إِخْلاصًا لِأَخِيهِ: «راما»، فقال: «وإِنِّي مُصاحِبُكَ يا أَخِي، وباذِلٌ كلَّ قُوَّتِي وَجُهْدِي في سَبيلِ الْمُحَافَظَةِ على الأَميرَةِ «سِيتا».»

وَحَاوَل «راما» أن يُثْنِيَ زَوْجَهُ وأَخاهُ عَن السَّفرِ إلى غابةِ الشَّياطينِ، حَتَّى لا يُعَرِّضا نَفْسَيْهما لأخطارِها وأَحْداثِها الْمُفَزِّعَةِ، فلم يَجِدْ مِنْهما إلَّا إِصْرارًا؛ فَاضْطُرَّ — حِيْنَئِذٍ — إلى الإِذْعانِ لِرَغْبَتِهما، ثم الْتَفَتَ إلى أَبِيهِ الشَّيْخِ الْهَرِمِ وعانَقَهُ، وقال له وهُوَ يُوَدِّعُهُ: «هَوِّنْ عَلَيْكَ يا أَبَتاهُ، فَلَسْتُ أَلُومُكَ علَى شَيْءٍ؛ فما لكَ في ذلك كلِّهِ إِصْبَعٌ واحِدَةٌ.»

(١١) وَفاةُ الشَّيْخِ

وَغادَرَ الأُمراءُ الثَّلاثَةُ الْقصرَ، بين رَنَّاتِ الْمَحْزونين، وزفَراتِ الْمُحِبِّينَ، بعد أن خَلَعُوا أَكْسِيَتَهُمُ الْمُلوكيَّةَ، وارْتَدَوْا — منَ الثِّيابِ — ما يُلائِمُ سُكَّانَ الْغابِ. وساروا في الطَّرِيقِ الجَنُوبِي من الْمَمْلَكَةِ مُيَمِّمِينَ تِلْكَ الغاباتِ الْكَثِيْفَةَ الْمُظْلِمةَ. وما خَرَجُوا من القَصْرِ حتى اسْتَوْلَى الغَمُّ عَلى الوالِدِ الشَّيْخِ فَصَرَعَهُ، وانْتابَتْهُ الأمراضُ والعِلَلُ. وتَلَمَّسَ له نُطُسُ الأَطِبَّاءِ البُرْءَ والشِّفاءَ، فلم يَجِدوا الدَّواءَ، ونَفِدَتْ حِيلَتُهم؛ فلم يُفِقْ من صَرْعَتِهِ، حتَّى أَسْلَمَتْهُ إلى مَنيَّتِهِ.

(١٢) خَيْبَةَ «كَيْكِي»

وابتَهَجَتْ «كَيْكِي» لوَفاتِه، وقالت تُحَدِّثُ نفسَها: «الآنَ يُتَوَّجُ وَلَدِي «بَهارات»، ويَخْلُفُ أباه على عَرْشِه بلا مُزاحِمٍ ولكِنَّ أُمْنِيَّتَها خابَتْ، حين رأتْ وَلَدَها «بَهاراتَ» يَأْبَى أن يُتَوَّجَ من أخيه، مُصِرًّا على إحضارِهِ من الغابةِ لِيُتَوِّجَهُ ويُعِيدَ إليه حَقَّهُ الْمَسْلُوب وَتَوَسَّلَتْ «كَيْكِي» ضارِعةً إليه أَلَّا يُخَيِّبَ رجاءَها، وَأَلَّا يُفْسِدَ خُطَّتْها ولكِنَّهُ أَصَرَّ على رفعِ الغَبْنِ عن أخيه؛ فَأَسْرَعَ بالرَّحيلِ إلى غابة «وَنَداك» حتى لَحِقَ بالأميرِ «راما» وصاحِبَيْهِ الأكْرَمِينِ.

وقد عَجِبَ حين رآهم يَمْرَحون في الغابة أصِحَّاءَ ناشِطِينَ، هازِئِينَ بالْمَتاعبِ التي تَعترِضُهم فِي تِلك الأَرْجاءِ، وقد يَسَّرَ إِخلاصُهم كلَّ صعبٍ، وذَلَّل كُلَّ عَقَبةٍ، وَبَدتِ الأَمِيْرَةُ «سيتا» في رِدائِها الطَّبِيعِي، أجملَ منها في ثيابها الفاخِرةِ الْمُحَلَّاة بِأَنفَسِ اللَّآلِئِ، وأَثْمَن الْيَواقيتِ.

(١٣) نائِبُ الْمَلِكِ

وقد حَزِنَ «راما» لوَفاةِ والدِهِ أَشَدَّ الْحُزْنِ، ولم يَسْتَمِعْ إلى رجاءِ «بَهاراتَ». ورَفَضَ أنْ يُتَوَّجَ على «كُوسالا» قبل أن يَقْضِيَ في مَنْفاه السَّحِيقِ أَربعةَ عشرَ عامًا كاملةً، كما أمره والدُه.

ولَمَّا رأى «بَهاراتُ» إصرارَ أخيه، قال له: «إِذَنْ أَحْكُمَ النَّاسَ نائِبًا عنك، مُتَرقِّبًا يومَ عَوْدَتِك السَّعيدَ بِفارِغِ الصَّبْرِ.»

ثُمَّ وَدَّعَهُمْ مَحْزونًا، وكَرَّ راجعًا إلى مَمْلكةِ «كوسالا» حَيْثُ أَقَامَ حُكْمَهُ العادِلَ، وساسَ النَّاس بِما عُرِفَ عنه منَ الرُّشْدِ والسَّدادِ. ولم يَقْبَلْ أَنْ يُتَوَّجَ، بل آثَرَ أن يَنُوبَ عنه في حُكمِ البلادِ. ووضَعَ عَلَى العرشِ بعضَ آثارِ أخيه، رَمزًا لِسُلْطانِه، مُصِرًّا على أن يَحْكُمَ النَّاسَ باسْمِ «راما» حتَّى يَعودَ مِنْ مَنْفاهُ.

وهكذا حَبِطَتْ (فَسَدَتْ) خُطَّةُ «كَيْكِي»، ولم تَفُزْ بِتَتْوِيجِ وَلَدِها. عَلَى أنَّها وخادِمَها الْعَجوزَ «مَنتارا» لم تَيْأَسا من تحقيقِ رَغْبَتهما، لاعتقادِهِما أَنَّ «راما» لن يَعودَ مِنْ مَنفَاهُ سالِمًا.

(١٤) بعدَ سنواتٍ عَشْرٍ



أَمَّا الأُمراءُ الثَّلاثَةُ، فقد عاشوا هانِئِينَ، وأَوْغَلُوا في الْغابةِ مُتَنَقِّلينَ، واقْتاتُوا فاكهةً وعُشْبًا مِمَّا يَجْمَعون، وَلَحْمَ طَيْرٍ وحَيَوانٍ مِمَّا يَصطادون، فانقضَتْ عليهم عَشْرُ سنواتٍ دون أن يَرَوْا في تِلكَ الغاباتِ أحدًا من الشَّياطِينِ يُكَدِّرُ عليهم صَفْوَهُمْ وابتهاجَهم. وفي ذاتِ يومٍ مَرُّوا — في أثناءِ تَجْوالِهِمْ — عَلَى صَوْمَعَةٍ صَغيرةٍ، يَقْطُنُها ناسِكٌ هَرِمٌ من الزَّاهِدينَ، اسْمُهُ «أَجَسْتاي». فرَحَّبَ بِهِمْ أكرَمَ تَرحِيبٍ، وأَحْسَنَ وِفادتَهُم. وَدَهِشَ حين أَخْبروه أنَّهم أقاموا زُهاءَ عَشْرِ سنواتٍ دونَ أن يَعْتَرِضَهُم شيطانٌ منَ الشَّياطِينِ، أو يُهاجِمَهُمْ عِفْريتٌ من الْجِنِّ. فقال لهمُ النَّاسِكُ: «لا أَكْتُمُ أَنَّني — مُنذُ لَجَأْتُ إلى هذه الغابةِ، وتَفَرَّغْتُ لِلْعِبادةِ والنُّسُكِ — لَمْ أَلْقَ مِنْ شَياطِينها الْخُبَثاءِ — وعلى رَأْسِهم زعيمُهمْ «رَقانا» — أيَّ أَذًى، ولم يَعرِضْ لي أَحدٌ منهم بسُوءٍ. ولكنَّني — على هذا — طالما رَأَيتُهم رابِضِينَ عَلى مسافةٍ قَرِيبةٍ من صَوْمَعَتِي.»

(١٥) هدايا النَّاسِكِ

ثُمَّ اسْتَأْنفَ قائِلًا: «عَلى أَنِّي أَخْشَى أَنْ تَقعَ عليكم عينُ أحدهِم، فَيخطُرَ ببالِهِ أن يُسِيءَ إليكم. وإِنِّي — وإن كنتُ واثقًا من شجاعَتِكم وقُدْرَتِكم عَلى مُصارَعَةِ الْمَرَدَةِ والجبابِرَةِ — لا آمَنُ عليكم كَيْدَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ، إِلَّا إذا زَوَّدْتُكُم بما لَدَيَّ من ذَخيرةٍ وعَتادٍ.»

ثمَّ أَهْدَى إِلَيْهِمْ شَيئًا مِمَّا حَوَى مَخْزَنُهُ من آلاتِ الْحَرْبِ الفتَّاكَةِ الَّتي أَعَدَّها لِصِراعِ الشَّياطِينِ. وقد فَرِح «راما» بما أَهْداهُ إِليه النَّاسكُ «أَجَسْتاي» من العَتادِ؛ فقد منَحهُ قَوْسًا وسِهامًا مَسْحُورَةً لا تُحْصَى. كما فَرِحَ «لَكْشَمانُ» بالسَّيْفِ الذَّهَبِيِّ الغِمْدِ الَّذي أهداه إليه النَّاسكُ.

وقد قال لهم النَّاسِكُ: «إِن لهذه القوسِ، وذلكم السَّيْفِ، وَتِلْكُمُ السِّهامِ، قُوَّةً سِحْرِيَّةً باطِشةً تَخافُها الشَّياطينُ، ولا تَجْرُؤُ على الدُّنُوِّ من حامِلِها. ولعلَّها تنفعُكم — يومًا — إذا عَرَضَ لكم ضُرٌّ، وتَقِيَكُمْ مِنْ أَسْواءِ الشَّياطِينِ كُل شَرٍّ.» فشكر الأميرانِ له ما أَسْداه إليهما من صنيعٍ جليلٍ.

ولم يَظْفَرْ «راما» بهذَا الكَنْزِ الْعَظِيمِ حَتَّى أَقْسَم لَيُطَهِّرَنَّ العَالَمَ كُلَّهُ من الشَّياطِينِ الْخبيثةِ؛ لِيُخَلِّصَ النَّاسَ من كَيْدِهِمْ، ويُرِيحَهُمْ من أَذاهُمْ. وَكانَ نابِلًا بارِعًا، يُجِيْدُ الرِّمايَةَ وَيُصِيبُ الهَدَفَ. وَكانَ في طُفُولتِهِ — إذا خرج يَتَرَمَّى (يَرْمِي بالنَّبْلِ في الأَهْدافِ وأُصولِ الشَّجَرِ) — لَمْ يَسْبِقْهُ سابِقٌ، ولَمْ يَلْحَقْهُ لاحِقٌ.

(١٦) الْوادِي الْبَهِيجُ

وَقَضَى الأُمَراءُ ساعاتٍ سَعيدةً في ضِيافَةِ النَّاسِكِ «أَجَسْتاي»، ثُمَّ اسْتَأْذنُوه في الْخُرُوج بعد أنِ اسْتَنْصَحُوهُ أن يُخْبِرَهُم بِمَكانٍ بَهِيجٍ يَقْضُونَ فيهِ أوقاتَهُم، حتَّى يَنْتَهِيَ فَصلُ الشِّتاءِ القابِلِ، لأَنَّ الأميرةَ «سِيتا» قد تَعِبتْ من تَجْوالِها، وشَعَرَتْ بِحاجَةٍ إلى الرَّاحَةِ. وقدِ اعْتزَمَ «راما» أن يَبْنِيَ لها مَسْكَنًا صغيرًا تَأْوِي إِليهِ، وَتَرتاحُ فيه.

فقال النَّاسِكُ: «عليكم بِوادِي «پَنْشَاتِي»؛ فهو في أجملِ بُقْعَةٍ في الغابة، وَقَدْ جَمَعَ بين المَناظِرِ البَهيجة والأشجارِ الْمُثْمِرَةِ، والجَوِّ الطَّيِّبِ، والطُّمَأْنينَةِ الشَّامِلَةِ.»

ثم بَيَّن لهُمُ الطُّرُقَ الْمُؤَدِّيَةَ إلى ذلكَ الوادِي البَهيج؛ فشكروا له ثم ودَّعُوهُ، وساروا في رِحْلَتِهِمْ متَنَبِّلِينَ (مُزَوَّدين بالنِّبَالِ)، حتَّى بَلَغوا وادِيَ «پِنْشقاتي»؛ فَوجدوه كما وَصَفَهُ الناسِكُ، فَفَرِحُوا بذلكَ الْمَكانِ الْهادِئِ الْجَمِيلِ، وَمَتَّعوا أَبْصارَهُمْ بما يَحْوِيهِ من جالباتِ السُّرُورِ والْبَهْجَةِ.

وكانتِ الشُّجَيْراتُ الْمُزْدَهِرَةُ تُغَطِّي أرْضَه، والأشجارُ تَكْتَنِفُه (تُحِيطُ به)، والطُّيورُ الْمُغَرِّدَةُ لا تَكُفُّ عن الْغِناءِ على أَغْصانِها العَالِيَةِ. وَقَدِ انْتَظَمَهُ نُهَيْرٌ يَتَحَدَّرُ مِنْ أَعْلَى الوادي؛ فَيَسْمَعُونَ لِخَرِيرِ مائِهِ صَوتًا عَذْبَ الْجَرْسِ، مُعْجِبَ الرَّنِينِ.

(١٧) بَيْتُ الْوادِي

فقالتْ «سِيتا»: «ما أَطْيَبَ هذا الْمَكانَ، وما أَجْدَرَنا أَنْ نَحُلَّ فيهِ.» فاسْتَصْوَبَ الأميرانِ رَأْيَها، وشَرَعا في بِناءِ دارِهِمُ الْجَدِيْدَةِ. وما زالا دائِبَيْنِ على تَشْيِيدِها حَتَّى أتَمَّاها بَعدَ زَمَنٍ قليلٍ. وقد فَرِحَتْ «سِيتا» بِمَنْزِلِها الْجَدِيدِ، وَخُيِّلَ إِلَيْها — لِجَمالِهِ — أَنَّهُ قَصْرٌ عَظِيمٌ، وإِنْ كانَتْ حِيطانُهُ مصْنُوعَةً من الْأَحْجارِ، لا مِن الرُّخامِ، وأَعْمِدَتُهُ من قَصَبِ الغابِ الْغَلِيظِ، وسُقُوفُهُ من أَغْصانِ الشَّجَرِ.



وهكذا قَضَوُا الشِّتاءَ وادِعِينَ سُعَداءَ. وقد أَمِنَ «راما» أذَى العَفارِيتِ والشَّياطِينِ، وَأَيْقَنَ أَنَّهُمْ لَنْ يَجْرُءُوا عَلَى الدُّنُوِّ منه، بعد أَنْ تَنَبَّلَ (حَمَلَ النَّبْلَ). ولَمْ يَعْلَمْ ما تُخَبِّئُهُ الْأَيَّامُ من كَوارِثَ وأَحْداثٍ.

الفصل الثاني

أَسِيرَة الشَّيْطانِ

(١) فاتحةُ الشَّقاءِ

واحَسْرتا على «راما» وصاحِبَتِهِ (زَوْجَتِهِ) وَأَخِيهِ، فَكَأَنَّما انْتَهَتْ أَيَّامُ سَعادَتِهِمْ وَسَلامَتِهِمْ بانْتِهاءِ فَصْلِ الشِّتاءِ، فَلمَّا حَلَّ الرَّبيعُ حَلَّتْ مَعَهُ الْكوارِثُ والْخُطُوبُ، فَقَدْ فَرَغَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ «رَڤانا»، بَعْدَ أَنْ تَمَّ لَهُ الظَّفَرُ بِأَعْدَائِه الَّذِينَ شَغَلُوهُ عَشْرَ سَنَواتٍ كامِلَةً في حُروبٍ طاحِنَةٍ. فَلَمَّا اسْتَتَبَّ لَهُ الْأَمْرُ ذَهَبَ لِزيارَةِ أَخِيهِ الشَّيْطَانِ «مارِتْشي» مَلِكِ هذِهِ الْغابةِ، حَيْثُ تَعَوَّدَ أَنْ يَقْضِيَ فَصْلَ الرَّبِيعِ — مِنْ قَبْلُ — في كلِّ عامٍ. وثَمَّةَ رَأَى تِلْكَ الْأُسرةَ الْكَرِيمَةَ الهَانِئَةَ؛ فاعْتَزَمَ أَنْ يُنَغِّصَ عَيْشَهُمْ، وَيُكَدِّرَ صَفْوَهُمْ، ويُفَرِّقَ شَمْلَهُمْ، ولكِنَّهُ خَشِيَ أَنْ تَصْرَعَهُ سِهامُ النَّاسِكِ الَّتي زَوَّدَهُمْ بها، ولمْ يَجْهَلِ الْخَطَرَ الَّذِي يَدْهَمُهُ إذا عَرَضَ لِمُناوَأَتِهِم عَلانِيَةً، فأَطالَ تَفْكِيرَهُ، وَأَحْكَمَ تَدْبِيرِهُ، حتَّى اهْتَدَى — آخِرَ الْأَمْرِ — إلى حِيلَةٍ بارِعَةٍ.

وكان أَوَّلَ ما خَطرَ بِبالِهِ أنْ يَتَرَصَّدَ لَهُمْ في مَكانٍ قرِيبٍ مِنْ وادِي «پَنْشڤاتي»؛ بِحَيْثُ لا تَقعُ أَعْيُنُهُمْ علَيْهِ، آمِلًا أنْ يَظْفَرَ بِهِمْ وَلَوْ مَرَّةً واحدَةً — عُزْلًا غَيْرَ مُدَجَّجِينَ بِأَسْلِحَتِهِمُ الْفَتَّاكَةِ.

(٢) أُمْنِيَّةُ الشَّيْطَان



وفي لَيْلَةٍ مِنْ لَيالِي الرَّبيعِ الأُولَى عَنَّتْ (خَطَرتْ) لِلشَّيطانِ فِكْرَةٌ خَبِيثَةٌ — وهُوَ يَرْقُبُ الْأُمَراءَ — فَامْتلَأَ قَلْبُهُ سُرُورًا، وقالَ لِنَفْسِهِ مُبْتَهِجًا مَحْبُورًا: «يا لَهُ مِنْ رَأْيٍ سَدِيدٍ! إِنَّ «سِيتا» أَجْمَلَ إِنْسانٍ في الدُّنْيا — هِيَ بِلا شَكٍّ أَعَزُّ على «راما» مِنْ نَفْسِهِ. وَلنْ أَسْتَطِيعَ تَنْغِيصِ عَيْشِهِ، وإِذْلالَ كِبْرِيائِهِ وأَنَفَتِهِ، إذا قَتَلْتُهُ. ولَكِنَّنِي إذا خَطِفْتُها مِنْهُ سَلَبْتُهُ أَثْمَنَ كَنْزٍ يَحْرِصُ عَلَيْهِ في حَياتِه.»

وكانَ الشَّيْطَانُ يَعْلَمُ أَنَّ بُلُوغَ هذهِ الْغايَةِ عَسِيرٌ — إِنْ لَمْ يَكُنْ مُحالًا — فَإِنَّ الْأَمِيرَيْنِ لا يَتْرُكانِ «سِيتا» لَحْظَةً واحِدَةً، وَلا يَكُفَّانِ عَنْ حِراسَتِها لَيْلًا وَلا نَهارًا، فَكيْفَ السَّبِيلُ إِلى اخْتِطافِها؟

(٣) عِنْدَ «مارِتْشي»

فَكَّرَ الشَّيْطانُ في الاسْتِعانَةِ بِأَخِيهِ «مارِتْشي» سُلْطانِ الْغابَةِ، لِيُعاوِنَهُ على قَضاءِ مَأْرَبِه الْخَبِيثِ. وَاعْتَزَمَ الذَّهابَ إِلَيْهِ في حاضِرَةِ مُلْكِهِ، وهِيَ على مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ مِنْهُ، فَاسْتَقَلَّ مَرْكَبَتَهُ الذَّهَبِيَّةُ لِتَحْمِلَهُ إِلَيْها في أَقْصَى الْغابَةِ. وكانَ يَجُرُّها جَحْشانِ مِنْ أظْرَفِ جُحُوشِ الجِنِّ، وأَسْرَعِهِنَّ جَرْيًا، وأَوْفَرِهِنَّ نَشاطًا. لَهُما جِسْمَا وَحْشَيْنِ، ورَأْسَا عِفْرِيتَيْنِ، لَوْ رَأَيْتَهُما — أَيُّها الْقارِئُ الْعَزِيزُ — لَما تَمالَكْتَ مِنَ الضَّحِكِ. وَهُما يَطِيرانِ بالْمَرْكَبَةِ في الْجَوِّ، كما يَجْرِيانِ بِها عَلَى الْأَرْضِ، فَلا يَلْحَقُ بِهِما في طَيَرانِهِما، وَلا يُدْرِكُهما فِي جَرَيانِهِما، كائِنٌ كانَ، مِنْ طائِرٍ وَحَيَوَان.

وَلَمَّا بَلَغَ الشَّيْطَانُ أخاهُ وَجَدَهُ جالِسًا أَمامَ دارِهِ يَسْتَزِيدُ مِنَ الدَّرْسِ والْقِراءَةِ في فُنُونِ السِّحْرِ، فَصَاحَ فِيهِ قائِلًا: «تَحِيَّتِي إِلَيْكَ يا مارِتْشي» وَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِ الْمُقامُ حَدَّثَهُ بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِ، وَأَفْضَى إِلَيْهِ بمَطْوِيِّ سِرِّهِ.

(٤) حِوارُ الشَّيْطانَيْنِ



فَأَجابَهُ «مارِتْشي» مَذْعُورًا: «حَذارِ — يا أَخِي — أن تَعْمِدَ بالأَذَى إلى أَحَدٍ مِنْ هؤُلاءِ الأَناسِيِّ؛ فَإِنَّهُمْ — مِنْ إِيمانِهِمْ وحُسْنِ يَقِينِهِمْ — في أمانٍ مِن كَيْدِنا، مَعْشَرَ الشَّياطِينِ. وَقَدْ تَرَكْتُهُمْ — مُنْذُ حَلُّوا هذِهِ الْغابَةَ — دُونَ أَنْ أَمَسَّهُمْ بِسُوءٍ؛ لِأَنَّ قَلْبِي يُحَدِّثُنِي أَنَّ كُلَّ مَنْ يُحاوِلُ إِيذاءَهُمْ، إِنَّما يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِلْهَلاكِ، وأَنَّ هذا الأَمِيرَ الْمُخْلِصَ لَمْ يُقْسَمْ لَهُ

الْمَجِيءُ — مُنْذُ سَنَواتٍ — إلى هذهِ الْغابَةِ، إلَّا لِغَرَضٍ واحِدٍ: هُو تَشْتِيتُنا والْقَضاءُ عَلَيْنا أجْمَعِينَ، وتَخْلِيصُ الْأَناسِيِّ مِنْ كَيْدِ الأَبالِسَةِ وحَبائِلِ الشَّياطِينِ. وَقَدْ وَفَّقَهُ حَظُّهُ السَّعِيدُ إلى التَّعَرُّفِ بذلِكَ الْحَكِيمِ الرَّشِيدِ؛ فزَوَّدَهُ بِأَفْتَكِ الأَسْلِحَةِ الَّتِي لا تُبْقِي على أَحَدٍ مِنْ أبْناءِ جِنْسِنا وَلا تَذَرُ، ولا تَنْفَعُ مَعَها شَجاعَةٌ ولا حَذَرٌ. والرَّأْيُ عِنْدِي أَن نُخْلِيَهُ وَشَأْنَهُ، وَأَنْ نَبْتَعِدَ عَمَّا يُوجِبُ لَنا الْحَسْرَةَ والنَّدامَةَ، وَنَقْنَعَ مِنَ الْغَنِيمَةِ بالنَّجاةِ مِنْهُ والسَّلامةِ. فَنَحْنُ — كما تَعْلَمُ — لا سُلْطانَ لَنا عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْأَناسِيِّ، إلَّا عَلَى ضُعَفاءِ الْقُلُوبِ الهَيَّابِينَ، وَذَوِي الْعَزائِمِ الْخائِرَةِ الْمُتَرَدِّدِينَ.»

فَأَجابهُ «رَڤانا»: «لَسْتُ أَجْهَلُ شَيْئًا مِمَّا تَقُولُ، وَلَمْ تَبْلُغْ بِي الْحَماقَةُ وخَطَلُ الرَّأْيِ أَنْ أُحَارِبَ ذلِكَ الشُّجاعَ الْباطِشَ الْغَلابَ. وَلكِنَّنِي فَكَّرْتُ فِي خُطَّةٍ — إِذا نَجَحَتْ — هانَتْ عَلَيْهِ الْحَياةُ، وتَمَنَّى — مِنْ أَجْلِها — الْمَوْتَ، دُونَ أَنْ نَزُجَّ بِنَفْسَيْنا وأَعْوانِنا فِي مُحارَبَتِهِ.»

ثُمَّ أَفْضَى الشَّيْطانُ إلَى أَخيهِ بِخُطَّتِهِ الْبارِعَةِ، الَّتي دَبَّرَها لِيَخْطَفَ «سِيتا» وَيَسْجُنَها فِي قَصْرِهِ الْفَخْمِ، فِي جَزِيرَةِ «لَنْكا» النَّائِيَةِ، وخَتَمَ كَلَامَهُ قائِلًا: «وَمَتَى حَلَّتْ «سِيتا» تِلْكَ الْجَزِيرَةَ اسْتَحالَ على صاحِبِها (زَوْجِها) أَنْ يَعْبُرَ الْبِحارَ الْمائِجَةَ الَّتي تَفْصِلُ جَزِيرَةَ «لَنْكا» عَنْ دُنْيا الآدَمِيينَ.»

(٥) وَعِيدُ «رَڤانا»

فَقالَ الشَّيْطانُ «مارِتْشي»: «لا أَزالُ عَلى رَأْيِي مُصِرًّا.»

وَطالَ الْحِوارُ بَيْنَ الأَخَوَيْنِ، فَلَجَأَ «رَڤانا» إلى إغْراءِ أَخيهِ لِيُعاوِنَهُ؛ فَوَعَدَهُ بِأَنْ يَمْنَحَهُ نِصْفَ مُلْكِهِ في جَزِيرَةِ «لَنْكا» إذا ساعَدَهُ في إِنْجازِ خُطَّتِهِ، وتَحْقِيقِ رَغْبَتِهِ. ولكِنَّ «مارِتْشي» لَمْ يَتَحَوَّلْ عَنْ رَأْيِهِ قِيدَ أُنْمُلَةٍ (لَمْ يَتَزَحْزَحْ عَنْهُ مِقْدارَ رَأْسِ الإصْبَعِ). وطالَ الْجَدَلُ بَيْنَ الأَخَوَيْنِ، وتَمَلَّكَ الْيَأْسُ «رَڤانا»؛ فَشَهَرَ سَيْفَهُ عَلى أخيهِ، مُتَوَعِّدًا إِيَّاهُ بالْقَتْلِ، إذا أَصَرَّ عَلى عِنادِهِ.

فَلَمَّا رَأَى «مارِتْشي» أَنَّهُ يَسْتَعْجِلُ هَلاكَهُ — إذا خالَفَ أَخَاهُ — اضْطَرَّهُ الْخَوْفُ إلى الإِذْعانِ. ثُمَّ جَلَسا يَتَشاوَرانِ فِي الْخُطَّةِ الَّتِي يَسْلُكانِها. وتَمادَى (طالَ) بَيْنَهُما الْحَديثُ حَتَّى تَنَفَّسَ الصُّبْحُ؛ فامْتَطَيا (رَكِبا) مَرْكَبَةَ «رَڤانا»، وَقَدْ أَعَدَّا خُطَتَهُما الْخَبِيثَةَ أَحْكَمَ إِعْدادٍ.

(٦) الْأُسْرَةُ السَّعِيدَةُ

أَمَّا الْأُمَراءُ الْمَنْفِيُّونَ، فَقَدْ شَعَرُوا فِي ذلِكَ الْيَوْمِ بالسَّعادَةِ الْحَقِّ، ولَمْ يَدْرُوا ما يَخْبَؤُهُ لَهُمُ الْقَدَرُ مِنْ نُذُرِ الشَّرِّ، فاسْتَقْبَلُوا صَباحَ الرَّبِيعِ مُبْتَهِجِينَ بِجَمالِه، وأَنْجَزُوا أَعْمالَهُمْ قُبَيْلَ الظُّهْرِ. ثُمَّ خَرَجَ «لَكْشمانُ» لِيَلْتَمِسَ لِلأَمِيرَيْنِ فاكِهَةً طازِجَةً، وَجَلَسَ «راما» و«سِيتا» تَحْتَ شَجَرَةٍ فَيْنانَةٍ، يَتَفيَّآنِ ظِلَّها، وَيُرَوِّحانِ عَنْ نَفْسَيْهِما تَحْتَها. وابْتَهَجَتْ «سِيتا» وتَمَلَّتْ الْوُرُودَ (أَطالَتْ الاسْتِمْتاعَ مِنْها)، وامْتلَأَتْ نَفْسُها حُبُورًا بِما يَكْتَنِفُها (بِمَا يُحِيطُ بِها) مِنْ أَزْهارِ الرَّبِيعِ الْمُنَوَّرَةِ في كُلِّ مَكانٍ. وَجَلَسَ «راما» — إِلَى جِوارِها — يُفَكِّرُ في وَفائِها وإِخْلاصِها وشَجاعَتِها الَّتِي حَفزَتْها (ساقَتْها ودَفَعَتْها) إِلى مُشارَكَتِهِ في مَنْفاهُ، غَيْرَ مُبالِيَةٍ بِما تَتَعَرَّضُ لَهُ — فِي سَبِيلِه — مِنْ أَخْطارٍ وَأَهْوالٍ، وَيَوَدُّ لَوْ أُتِيحَتْ لهُ فُرْصَةٌ تُمَكِّنُهُ مِنْ مُكافَأَتِها عَلى ما أَسْلَفَتْ إِلَيْهِ مِنْ صَنِيعٍ (ما قَدَّمَتْ لَهُ مِنْ مَعْرُوفٍ).

(٧) الظَّبْيَةُ الصَّغِيرَةُ

وَإِنَّهُ لَغارِقٌ في تَأَمُّلاتِهِ، مُسْتَسْلِمٌ لِتَفْكيرِه، إذا بِصَيْحَةٍ فَرِحَةٍ تَنْبَعِثُ مِنْ فَمِ «سِيتا» وَهِيَ تُنَادِيهِ مَسْرُورَةً: «أَلَا تَرَى هذِهِ الظَّبْيَةَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي تَقْفِزُ على مَدِّ الْبَصَرِ، وتجْرِي عَلَى مَرْمَى النَّظَرِ؟ ها هِيَ ذِي تَدْنُو مِنَّا، فما أَجْمَلَها ظَبْيَةً، وما أَظْرَفَ شَعْرَها الَّذِي يَلْمَعُ كما يَلْمَعُ الذَّهَبُ الخَالِصُ، أَلا لَيْتَها لِي!»

فَسأَلَها «راما» باسِمًا: «وَماذا كُنْتِ بِها صانِعَةً؟»

فَأَجَابَتْهُ في لَهْفَةِ الْمَشْغُوفِ: «إِذَنْ لَجَعَلْتُها أَنِيسَةَ وَحْدَتِي، وَمَصْدَرَ سَلْوَتِي، واتَّخَذْتُها لَعِيبًا لِيَ في أَيَّامِ غُرْبَتِي، وَاحْتَفَظْتُ بِها بَعْدَ عَوْدَتِي، مَتَى قُسِمَ لِيَ الرُّجُوعُ إِلَى مَمْلَكَتِي؛ فكانَتْ أَجْمَلَ ما أَحْتَفِظُ بِهِ مِنْ ذِكْرَياتي طُولَ أَيَّامِ حَياتِي.»

(٨) في أَثَرِ الظَّبْيَةِ

فَقالَ «راما»: «ما أَهْوَنَ ما تَطْلُبِينَ!» ثُمَّ أَسْرَعَ يَبْغِي اللِّحاقَ بالظَّبْيَةِ، وَلكِنْ سُرْعانَ ما اخْتَفَتْ بَيْنَ الْأَشْجارِ، فَصاحَتْ «سِيتا» مَحْزُونَةً لِفَواتِ الْفُرْصَةِ، ولكِنَّ الظَّبْيَةَ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ

ظَهَرَتْ لِلْعِيانِ — بَعْدَ اخْتِفائِها — وجَرَتْ مُوغِلَةً في الْغابَةِ، فَقالَ: «كُونِي عَلى ثِقَةٍ أَنَّني سَأَقْتَنِصُ لكِ هذهِ الظَّبْيَةَ، وأَنَّها لَنْ تُفْلِتَ مِنْ يَدِي!»



ثُمَّ نادَى أَخاهُ لِيَحْرُسَ الْأَمِيرَةَ، وأَوْصاهُ بِأَلَّا يُفارِقَها — لَحْظَةً واحِدَةً — لِأَيِّ داعٍ كانَ، فَوَعَدَهُ بِذلكَ، وجَلَسَ إِلى جِوارِ «سِيتا» يَنْتَظِرُ عَوْدَةَ أَخِيهِ. وجَرَى أَخُوهُ في أَثَرِ الظَّبْيَةِ حَامِلًا قَوْسَهُ وسِهامَهُ. ولكِنَّ الظَّبْيَةَ حَيَّرَتْهُ وَأَتْعَبَتْهُ، وغَرَّرَتْ بِهِ وخَدَعَتْهُ؛ دَنَتْ مِنْهُ فأَطْمَعَتْهُ، ثُمَّ اخْتَفَتْ عنْ ناظِرِهِ فَأَيْأَسَتْهُ، ثُمَّ تَبَدَّتْ — مَرَّةً أُخْرَى — فعاوَدَ سَعْيَهُ، وضَاعَفَ جَرْيَهُ.

وما زالَ يَتَجَدَّدُ أَمَلُهُ في اقْتِرابِها، ويُعاوِدُهُ الْيَأْسُ مِنَ اللِّحَاقِ بِها، حَتَّى أَجْهَدَهُ الْحَرُّ، وأَتْعَبَهُ الْكَرُّ.

وكانَ كُلَّما دَبَّ الْيَأْسُ إلى قَلْبِهِ، فَحاوَل أَنْ يُثْنِيَهُ عَنْ عَزْمِه، قالَ في نَفْسِهِ: «هذهِ أَوَّلُ رَغْبَةٍ تَتَمنَّاها «سِيتا»، مُنْذُ حَلَلْنا هذهِ الغابَةَ وتَخِذْناها وطَنًا لَنا. وَليسَ مِنَ الْمُرُوءَةِ أَنْ أُخَيِّبَ رَجاءَها مَتَى كانَ في قُدْرَتِي أَنْ أُحَقِّقَهُ.»

ولكِنَّ الظَّبْيَةَ تَمادَتْ في رَوغانِها؛ فَدَبَّ إِلى نَفْسِهِ الْقَلَقُ، وأَحَسَّ أَنَّ في الْأَمْرِ مَكيدَةً، دَبَّرَها بَعْضُ شياطينِ الْغابَةِ؛ لِإِبْعادِهِ عَنْ «سِيتا». ولكِنَّهُ اطْمَأَنَّ عليْها؛ لِأَنَّ أَخاهُ يَرْعاها مِنْ كَيْدِ الْكائِدِينَ، ويَقِيها شُرُورَ الأَبالِسَةِ وحَبائِلَ الشَّياطِينِ. وحِينَئِذٍ أَبْصَرَ الظَّبْيَةَ على قِيدِ خُطُواتٍ مِنْهُ، فَلَمَّا هَمَّ بالْقَبْضِ عَلَيْها نَفَرَتْ — على عادَتِها — مُبْتَعِدَةً عَنْهُ. فَقالَ في نَفْسِهِ: «إِنَّ هذا الحَيَوانَ مُتْعِبٌ مُشاكِسٌ، ولَنْ يَصْلُحَ لِتَسْلِيَةِ «سِيتا» إذا قَنَصْتُهُ. وَلَعَلَّ جِلْدَهُ الْبَرَّاقَ أَنْفَعُ لَها مِنْهُ وأَجْمَلُ!»

وَثَمَّةَ أَمْسَكَ بِقَوْسِهِ، وَأَطْلَقَ مِنْها سَهْمًا مَسْحُورًا، أصابَ الظَّبْيَةَ إِصابَةً قَاتِلَةً؛ فَهَوَتْ إِلَى الْأَرْضِ مُجَدَّلَةً في دِمائِها.

وَاقْتَرَبَ مِنْها الْأَمِيرُ، وَقَدْ نَدِمَ عَلَى قَتْلِها، وَلكِنَّهُ لَمْ يَكَدْ يُدَانِيها (يَقْتَرِبُ مِنْهَا) حَتَّى رَأَى ما لَمْ يَخْطُرْ لَهُ على بالٍ.

(٩) مَصْرَعُ «مارِتْشي»

فَقَدْ عادَتِ الظَّبْيَةُ — بَعْدَ أَنْ أَرْداها سَهْمُ الأَمِيرِ — إِلى أَصْلِها؛ فَإِذا الشَّيْطانُ «مارِتْشي» وهُو يَحْتَضِرُ، ويُعانِي آلامَ الْمَوْتِ، وَقَدْ بَدَا جُرْحُهُ الْقاتِلُ في جَنْبِهِ. وكانَ قَدْ حَوَّلَ نَفْسَهَ — بِما أُوتِيه مِنْ فُنُونِ سِحْرِه — إِلَى صُورةِ ظَبْيَةٍ جَمِيلَةٍ، آمِلًا أَنْ يُغْرِيَ الْأَمِيرَيْنِ باقْتِفاءِ أَثَرِهِ، واتِّباعِ عَدْوِهِ (جَرْيِهِ)، لِيُبْعِدَهُما عَنْ «سِيتا»، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلى الْهَلاكِ غَضِبَ وَاشْتَدَّ حِقْدُهُ على قَاتِلِهِ، فَصَرَخَ مُحاكِيًا صَوْتَ «راما»؛ لِيُوهِمَ مَنْ يَسْمَعُهُ أَنَّ «راما» يصيحُ طالِبًا مِنْ أَخِيهِ الْغَوْثَ وَالنَّجْدَةَ. ثُمَّ فاضَتْ رُوحُهُ الخَبِيثَةُ ذاهبَةً إِلَى الْجَحِيمِ.

(١٠) أثرُ الصَّيْحَةِ

وقَدْ حَدثَ ما تَوَقَّعَهُ «مارِتْشي» وهُوَ يَحْتَضِرُ، فَقَدْ دَوَّتْ في الْغابةِ عَوْلَتُهُ (صَرْخَتُهُ)، وتَرَدَّدَتْ — في جَنَباتِها — صَيْحَتُهُ، حَتَّى بَلَغَتْ وادِيَ «پِنْشَڤاتي» حَيْثُ أَقَامَتْ «سِيتا»

و«لَكْشمانُ» يَتَرَقَّبانِ عَوْدَةَ «راما»، فَلَمَّا سَمِعَتِ الأَمِيرةُ اسْتِغَاثَةَ «راما» نَظَرَتْ إلَى أَخِيهِ مُفَزَّعَةً، وصاحَتْ فِيهِ مُرَوَّعَةً: «إِنَّهُ «راما» يَدْهَمُهُ الْخَطَرُ؛ فَيَسْتَغِيثُ بكَ لِتُنْقِذَهُ.»

ولكِنَّ «لَكْشَمانَ» لَمْ تَجُزْ عَلَيْهِ حِيلَةُ الشَّيْطانِ، فَهَزَّ كَتِفَيْهِ، ونكَّسَ رَأْسَهُ، ثُمَّ قالَ مُتَأَلِّمًا: «كَلَّا، لا سَبِيلَ إِلى مُفارَقَتِكِ؛ فَقَدْ عاهَدْتُ أخِي على أَنْ أَبْقَى إلى جانِبِكِ حتَّى يَعُودَ.»

فَهَتَفَتْ «سِيتا» باكِيَةً مُوَلْوِلَةً، وصاحَتْ فِيهِ صارِخَةً مُعْوِلَةً: «إِنَّ الأميرَ في خَطَرٍ، ولَيْسَ لِحَياتِي قِيمَةٌ بَعْدَ أَنْ يَمُوتَ، فالْبِدارَ إِلَيْهِ، وأَسْرِعْ إلى إِنْقاذِهِ قَبْلَ فَوَاتِ الْوَقْتِ!»



فأجابَها مُتَلَطِّفًا: «سَكِّنِي منْ خَوْفِكِ، ولا يَسْتَوْلِيَنَّ عَلَيكِ الْجَزَعُ؛ فَإِنَّ «راما» — غَلَّابَ الْفُرْسانِ، وقاهِرَ الشُّجْعانِ — لا يَرْهَبُ الْحِمامَ، ولا يَخافُ الْمَوْتَ الزُّؤَامَ، ولا يَهابُ كائِنًا كانَ، ولا يَطْلُبُ النَّجْدَةَ منْ أَيِّ إِنْسانٍ. وفي جَعْبَتِهِ — مِنَ السِّهامِ — ما يَكْفِي

لِإبادَةِ كلِّ ما تَحْوِيهِ الدُّنْيا مِنْ مارِدٍ وجانٍّ، وعِفْرِيتٍ وشَيْطانٍ. ولَيْسَتْ هذِهِ الصَّرْخَةُ — الَّتِي سَمِعْتِها — إِلَّا صَرْخَةُ شَيْطانٍ رَجِيمٍ، يُحاوِلُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَنا، وَيَأْمُلُ أَنَّ يَسْتَدْرِجَنِي لاتِّباعِ خُطُوَاتِهِ؛ لَعَلَّهُ يَظْفَرُ بِإِيذائِكِ.»

فاشْتَدَّ جَزَعُ «سِيتا» على زَوْجِها الأَمِيرِ، ولَمْ تَقْتَنِعْ بِما سَمِعَتْ، بَلْ حَسِبَتْ أَخاهُ خائِفًا يَتَلَمَّسُ وسِيلَةً لِلْفِرَارِ مِنْ مُسَاعَدَتِهِ؛ فَصاحَتْ فِيهِ مُتَحَسِّرَةً، ودُموعُها مُتَحَدِّرَةٌ، وقالتْ وهي تَفْرُكُ يَدَيْها من الْحَنَقِ والْفَزَعِ، وَيَتَهَدَّجُ صَوْتُها مِنَ الْغَيْظِ والْجَزَعِ: «ما أَراكَ إِلَّا خائِفًا يَتَلَمَّسُ الْمَعاذِيرَ، لِيَنْجُوَ مِنَ اللَّوْمِ والتَّعْذِيرِ.»

فَتأَلَّمَ الْأَمِيرُ حِينَ سَمِعَ هذهِ التُّهْمَةَ، وقال لِلأَمِيرَةِ مُتأَسِّفًا: «فَلْتَكُنْ مَشِيئَتُكَ — يا أُخْتاه — وإِنْ كانَ قَلْبِي يُحَدِّثُنِي بأَنَّ فِي تَرْكِي إِيَّاكِ ضَرَرًا كبيرًا، وشَرًّا مُسْتَطِيرًا، ونَكَباتٍ تَتْلُوها نَكَباتٌ، وحَسَراتٍ تَتْبَعُها حسراتٌ. ولكنِّي أَتَوَسَّلُ إِلَيْكِ أَلَّا تَتْرُكي هذا الْمَأْوَى لأَيِّ سَبَبٍ؛ جَلَّ أَوْ حَقُرَ.»

ثُمَّ أَسْرَعَ مُيَمِّمًا (قاصدًا) الْمَكانَ الْمَجْهُولَ الَّذِي خُيِّلَ إِلَيهِ أَنَّ الصَّيْحَةَ قَدِ انْبَعَثَتْ مِنْهُ.

(١١) الضَّيْفُ الْهَرِمُ

وشَعَرَتْ «سِيتا» — بَعْدَ ذَهابِهِ — بِمَزِيجٍ مِنَ السُّرُورِ والْخَوْفِ؛ فَقَدْ فَرِحَتْ لِإِسْراعِ الأَمِيرِ إِلَى نَجْدَةِ أَخِيهِ. أَمَّا خَوْفُها فَلَمْ يَكُنْ مَصْدَرُهُ جَزَعَها مِنْ بَقائِها وحِيدَةً، بَلْ حَذَرًا عَلَى صاحِبِها (زَوْجِها) أَنْ يُصابَ بِسُوءٍ، قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِ نَجْدَةُ أَخِيهِ.

وجَلَسَتْ مَحْزُونَةً تَلُومُ نَفْسَها عَلَى تلْكَ الرَّغْبةِ الطَّائِشَةِ الَّتي حَبَّبَتْ إِلَيْها أَنْ تُغْرِيَ زَوْجَها بِصَيْدِ الظَّبْيَةِ النَّافرَةِ فَتُعَرِّضَ حياتَهُ لِلْهَلاكِ. ومَرَّتْ عَلَيْها اللَّحَظاتُ بَطِيئَةً كأَنَّها ساعاتٌ، وَهِيَ مُضْطَجِعَةٌ بِجوارِ دارِها تَرْقُبُ كلَّ حَرَكَةٍ بَيْنَ الشَّجَرِ، وتُصْغِي بانْتِباهٍ وحَذَرٍ، لَعَلَّها تَسْمَعُ وَقْعَ أَقْدامِ الأَمِيرَيْنِ.

وإِنَّها لَكَذلِك، إِذْ طَرَقَ سَمْعَها وَقْعُ أَقْدامٍ تَقْتَرِبُ منها بَيْنَ الأَشْجارِ؛ فَقَفَزَتْ لِتَرَى زَوْجَها الْقَادِمَ. ولكِنَّها شَعَرَتْ بِخَيبَةِ أَمَلِها حِينَ رَأَتْ أَمامَها — بَدَلًا مِنَ الأَمِيرَينِ — ناسِكًا هَرِمًا ضَعِيفًا، قَدِ انْحَنَى ظَهْرُهُ، وتَقَوَّسَتْ قامَتُهُ، وتَقَارَبَتْ خُطْوَتُهُ، واضْطَرَبَتْ مِشْيَتُهُ.

فَلَمَّا اقْتَرَبَ منْها حَيَّاها، فَرَدَّتْ عَلَيهِ تَحِيَّتَهُ في لُطْفٍ وأَدَبٍ. ولكِنَّها شَعَرَتْ بانْقِباضٍ حينَ سَمِعَتْهُ يَقُولُ: «أَتَأْذَنينَ لِي — يا سَيِّدَتِي — أَنْ أَسْتَرِيحَ قَلِيلًا في هذهِ البُقْعَةِ الْجَمِيلَةِ؛ فَإِنَّ جِسْمِي مُتْعَبٌ، وقَدَمَيَّ مُوجَعتانِ؟»

فَقالَتْ لَهُ مُتَرَفِّقَةً بِهِ: «سأُحْضِرُ لكَ ماءً لِقَدمَيك، وفاكِهَةً تُنْعِشُ بِها نَفْسَك.»

فَشَكَرَ لَها الشَّيْخُ الْهَرِمُ، وقالَ وهُو يُطِيلُ النَّظَرَ إِلَيْها: «مَنْ تَكُونِينَ أَيَّتُها الْفَتاةُ؟ وكَيْفَ حَلَلْتِ هذهِ الْغابَةَ الْمُقْفِرَةَ، مَعَ أَنَّ مِثْلَكِ جَدِيرٌ بِسُكْنَى الْقُصُورِ؟»

فَدَهِشَتْ مِنْ جُرْأَةِ هذا النَّاسِكِ، ولكِنَّها أَخْفَتْ دَهْشَتَها عَنْهُ ثُمَّ حَدَّثَتْهُ بِحَدِيثِها كُلِّهِ.

(١٢) حِوارُ الشَّيْطانِ

ولَمَّا بَلَغَتْ قِصَّتَها مَعَ الظَّبْيَةِ ضَحِكَ الشَّيْخُ. ثُمَّ وَقَفَ أَمامَها، وَقَدِ اعْتَدَلَتْ قَامَتُه بعْدَ انْحِنائِها، واسْتَقامَ ظَهْرُهُ بعْدَ تَقَوُّسِهِ، وتَطَلَّقَ وَجْهُه بَعْدَ تَعَبُّسِهِ، وتَحَوَّلَ الشَّيْخُ الهَرِمُ، فَأَصْبَحَ شَابًّا قَوِيًّا. وتَبَدَّلَتْ ثِيابُ الزَّاهِدِ فَصارتْ ثِيابًا مُلُوكِيَّةً فاخِرَةً، وتَجَلَّى أَمامَها «رَقانا» على حَقِيقَتِهِ، فَعَرفَتْ — حينَئِذٍ — جَلِيَّةَ أَمْرِهِ. واقْتَرَبَ منْها مُتَوَدِّدًا مُتَحَبِّبًا، وقالَ لَها مُسْتَعْطِفًا مُرَغِّبًا: «إِنَّني «رَقانا» مَلكُ جَزِيرَةِ «لَنْكا»، أَجْمَلِ جَزِيرَةٍ في عالَمِكُمُ الإِنْسِيِّ، وَعالَمِنا الْجِنِي. وقَدْ جِئْتُ أَدْعُوكِ لِزِيارَةِ قَصْرِي الْمُلوكِيِّ حَيْثُ تَقْضِينَ أَسْعَدَ أَيَّامِ حَياتِكِ، مَلِكَةً على عَفارِيتِ الدُّنْيا وَشياطِينِ الْعالَم، تَنْهَيْنَ فِيهِمْ وتَأْمُرِينَ.»



فَصاحتْ فيهِ دونَ أنْ يتَطَرَّقَ الْفَزَعُ إلَى نَفْسِها: «أَلا تَعْلمُ أَنّني زَوْجُ «راما» قاهِر الشُّجْعانِ، وسَيِّدِ الْفُرْسان؟»

فقالَ لَها الشَّيطانُ: «كُوني على ثِقَةٍ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ إلى غَيْرِ عَوْدَةٍ؛ فَقَدْ قَتَلَهُ أَخي «مارِتْشِي» الَّذي لاحَ لِأَعْيُنِكُمْ — في صُورَةِ ظَبْيَةٍ — لِيُبْعِدَ «راما». وقد نَجَحَتْ حيلَتُه، وظَفِرَ بِإِهْلاكِهِ.»

(١٣) في فَضاءِ الْجَوّ

فَوَقَفَتْ «سِيتا» حائِرَةً مُضْطَرِبةً، بَيْنَ مُصَدِّقةٍ ومُكَذِّبَةٍ. وحَدَّقَتْ فِيهِ، فَقرَأَتْ على سيماهُ آياتِ الْخِسَّةِ والشَّماتَةِ، فقالَتْ لَهُ فِي كِبْرِياءَ وثِقَةٍ: «إذا كانَ الْأَمِيرُ قَدْ قُتِلَ، فإِنِّي باقيةٌ على الْوَفاءِ لَهُ، مُخْلِصَةٌ — لِعَهْدِهِ — ما حَيِيتُ. وَلَنْ يَخِفَّ أَلَمي لهُ وحُزْني عَليْهِ حَتَّى أَمُوتَ.»



فقال الشَّيطانُ: «لَنْ أعُودَ بِغَيْرِكِ!» ثُمَّ نادَى مَرْكَبَتَه الْمُلوكِيَّةَ، فَحَضَرَتْ.

وحاوَلَتْ «سِيتا» أَنْ تُثْنِيَهُ (تَرْجِعَهُ) عَنْ عَزْمِه — بكُلِّ وسيلةٍ وحِيلةٍ — فَلَمْ تَجِدْ مِنْهُ سَمِيعًا. ودفَعها إلى مَرْكَبَتِهِ، وما كادَ، حتَّى حَلَّقَتْ بِهما في الجوِّ.

فَقالَتْ «سِيتا» هازِئَةً: «لَقَدْ خَطِفْتَنِي، وحَسِبْتَ أَنَّكَ قَدْ ظَفِرْتَ بي وَغَلَبْتَني. وَلكِنَّ الْأَيَّامَ كَفيلَةٌ أَنْ تُقْنِعَكَ بِأَنَّني سَأَظَلُّ حافِظَةً لِعهْدِي، بَرَّةً بِوَعْدي، حتى أَمُوتَ.»

فكانَ جَوابُ الشَّيطانِ على ذلِك أنِ اسْتَحِثَّ جَحْشَيْهِ لِيُسْرِعا في طَيرانِهما في أَعْلى طَبَقاتِ الْجَوِّ.

(١٤) مَلِكُ النُّسورِ

وإنَّما جَنَحَ إلَى ذلِكَ، لِأَنَّهُ رأى شَبَحًا هائِلًا يُلاحِقُه في خُطوَتِهِ، ويَقْتَرِبُ مِنْ مَرْكَبَتِهِ، فَخَشِيَ أَنْ يكُونَ أَحَدُ أَعْدائه يَجِدُّ في أَثَرِه. ولمْ يَلْبَثْ أَنْ تَأَكَّدَ لَهُ صِدْقُ ما حَسِبَهُ، إِذْ رَأَى «چاتايُو» مَلِكَ النُّسورِ — وهُمْ أعْداءٌ لِجِنْسِهِ أَلِدَّاءُ، مُنْذُ قَدِيمِ الزَّمانِ — وسمِعَهُ يَصْرُخُ

فِيهِ قائِلًا: «مكانَكَ — أيُّها الشَّيْطانُ — وخبِّرْنِي: إلَى أَيْنَ تَقْصِدُ؟ ولِماذا تَحْمِلَ هذِه الْأَسِيرَةَ التَّاعِسةَ؟»

فَصاحَتْ «سِيتا» مُسْتَنْجِدةً: «الْغَوْثَ يا سَيِّدَ النُّسُورِ، النَّجْدةَ يا مَلِكَ الطُّيُورِ! أَدْرِكِ الأَمِيرةَ «سِيتا» زَوْجَةَ «راما» الأميرِ العظيم، وخَلِّصْها من كَيْدِ هذا الباغِي الأثيمِ.»

فصاح النَّسْرُ: «أَطْلِقْ سَراحَ هذه الْمِسْكينةِ.»

فأجابه الشَّيطانُ مُسْتَهْزِئًا: «عُدْ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتَ، وافْسَحْ لي طرِيقِي، ولا تَدْخُلْ فِيما لا يَعنِيكَ. اذْهَبْ وإِلَّا قَتَلْتُكَ أَيُّها الغَبِيُّ الْجَرِيءُ.»

فَهَجَمَ النَّسْرُ يُحاوِلُ أَنْ يَفْتِكَ به، وَانْقَضَّ عليه بكلِّ ما وهَبه اللهُ مِن قُوَّةٍ، فأَسْرَعَ الشَّيْطانُ إليه، فطَعَنَهُ في جَنْبِه بِخِنْجَرِهِ طَعْنَةً قاتِلَةً، فَصاحَ النَّسْرُ، وهُوَ يُعانِي سَكَراتِ الْمَوْتِ: «مَعْذِرَةً أَيَّتُها الْأَمِيرَةُ، فَقدْ عَجَزْتُ عَنْ مُساعَدتِك. ولَسْتُ أَمْلِكُ الآنَ شَيْئًا غَيْرَ الدَّعَواتِ الصَّالِحاتِ.» ثُمَّ هَوَى إلى الأَرْضِ مِنْ ذلِكَ الْعُلُوِّ الشَّاهِقِ، وَهُوَ يَئِنُّ مِنْ فَرْطِ الْأَلَمِ والْيَأْسِ، وقَدْ سَخِرَ بِهِ عَدُوهُ، وضَحِكَ مِنَ النَّسْرِ الْمَقْهُورِ، ضحكةَ الظَّافِرِ الْمَنْصُورِ.

(١٥) عَلَى جَبَلِ الْقُرُودِ

واسْتَأْنَفَ الْجَحْشان طَيَرانَهُما، وَراحا يَنهْبَانِ الْجَوَّ نَهْبًا، وَيَطْوِيانِ الْفَضاءَ طَيًّا، وهُما قاصِدانِ إلى جزيرَةِ «لَنْكا»، حتَّى اجْتازا غابةَ الشَّياطِينِ كلَّها؛ أَشْجارَها وغُدْرانَها، هَضَباتِها ووِدْيانَها. وما زالا يَجِدَّانِ في طيرَانِهما حتَّى بلغا جَبَلَ الْقُرُودِ، ثُمَّ وَقَفَتِ الْمَرْكَبَةُ لَحْظَةً، فَرَأَتْ «سِيتا» مَخْلُوقاتٍ تُشْبِهُ الْقُرُودَ الْكَبِيرَةَ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ سَيْرَها دَفْعَةً فُجائِيَّةً أَطارَتْ عَنِ الأميرَةِ وِشاحَها وعِقْدَها، وأَلْقَتْ بِهما إلى ساكِنِي ذلِكَ الْجَبَلِ.

(١٦) بَيْنَ الْيَأْسِ والأَمَلِ

فقالَتْ في نَفْسِها مُتَأَسِّيَةً: «لَعَلَّ في سُقُوطِ الْوِشاحِ والْعِقْدِ بَشِيرًا بالْفَرَجِ، وإيذانًا بِزوالِ الْحَرَجِ؛ فَقَدْ يَأْتِي «راما» إلى هذا الْجَبَلِ، — إذا رُزِقَ الْحَياةَ وكُتِبَ لَهُ التَّوْفيقُ في الْبَحْثِ عنِّي — فَتُعْطِيهِ الْقُرودُ وِشاحي وعِقْدِي، ثُمَّ تُخْبِرُهُ بالْمَكانِ الَّذِي اتَّجَهْتُ إِليْهِ.»

وظَلَّتِ الْمَرْكَبَةُ مُسْرِعَةً فِي طَيرانِها فَوْقَ الْمُدُنِ والْقُرَى، حتَّى اقْتَرَبَتْ مِنْ شاطِئِ الْبَحْرِ. ثُمَّ طارَتْ فَوْقَ أَمْواجِهِ الثَّائِرَةِ الْمائِجَةِ، حتَّى بَلَغَت جَزِيرَةَ «لَنْكا»، حيْثُ كَتَبَ الْقَدَرُ عَلَى «سِيتا» أَنْ تَقْضِيَ سَنواتِ الْأَسْرِ، وتُعانِيَ مِنْ آلامِ الفِرَاقِ ما تُعاني، وتُضْجِرَها الْوَحْدَةُ فَتَعُدَّ الدَّقائِقَ والثَّوانِي. ولَمْ يَكُنْ لِيُهَوِّنَ عليْها غُمَّتَها، وِيُنْسِيَها كُرْبَتَها، إِلَّا قَبَسٌ — مِنَ الْأَمَلِ — ضَئِيلٌ، كانَ يَلُوحُ لَها في خَطْبِها الْجَلِيلِ، فَيُطْمِعُها في الْخَلَاصِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وِيُنْسِيها ما تُعانِيهِ مِنْ أَلَمِ الْحَسْرَةِ، وما تُكابِدُهُ مِنْ حَياةٍ مُرَّةٍ.

وما أَتْعَسَ الْإِنسانَ، لَوْلا أملٌ رَجَّاهُ، فَقرَّبَ لَهْ الْبَعِيدَ وأَدْناهُ، وهَوَّنَ عَلَيْهِ ما يَعْتَرِضُهُ ويَلْقاه، وأَمَّنَهُ ما يَخَافُهُ ويَخْشاه، وأَطْلَعَ لَهُ نَجْمُهُ ضَوْءَ سَناه، فَأَسْعَدهُ — في ظُلُماتِ يَأْسِهِ — وأَرْشَدهُ وهَداه، ويَسَّرَ لَهُ طَرِيقَهُ وَسَدَّدَ خُطاه. ولَوْلا الأَملُ لَوْلاه، لَقتَلهُ حُزْنُهُ وأَرْداهُ، وضَيَّقَ عَليْهِ يَأْسُه سُبُلَ الْحياةِ.

الفصل الثالث

زعيمُ القرُود

(١) الْتِقاءُ الْأَخَوَيْنِ

ولَمَّا صَرَعَ الأميرُ «راما» سُلْطانَ الْغابَةِ، أَسْرَعَ يَسْتَحِثُّ (يَسْتَعْجِلُ) خُطاهُ، عائِدًا إلى مَغْناهُ. فَلمَّا بلَغَ مُنْتَصَفَ طَرِيقهِ صادَفَ أَخاهُ، فَهالَهُ منهُ ما رآهُ مِنْ تَجَهُّمِ مُحَيَّاهُ، وظُهورِ الْقَلَقِ والْحَيْرَةِ على سِيماهُ. وأَحَسَّ الأميرُ بِما هُوَ مُسْتَهْدِفٌ لَهُ مِنْ كَيْدِ الدَّهْرِ وأَذاهُ، وتَأَكَّد لَهُ — مِنْ عُبُوسِ مَرْآهُ — صِدْقُ ما كانَ يَحْذَرُهُ ويَخْشاهُ.

فابْتَدَرَهُ يَسأَلُهُ جَلِيَّةَ الْخَبَرِ مُتَلَهِّفًا، ويَسْتَوْضِحُهُ حقيقَةَ الْأَمْرِ مُتَخَوِّفًا: «كَيْفَ أَهْمَلْتَ نَصيحتي وَخالَفْتَها؟ وأَيْنَ الأَمِيرَةُ؟ ولِماذا تَرَكْتَها؟»

فَأَنْشَأَ يَقُصُّ على أَخِيهِ قِصَّتَهُ، باسِطًا إِلَيْهِ مَعْذِرَتَهُ، مُلْتَمِسًا منْهُ مَغْفِرَتَهُ. ولكِنَّ «راما» قاطَعَهُ غاضِبًا صاخِبًا، وقال لَهُ لائِمًا عاتِبًا: «شَدَّ ما أَخْطَأْتَ — يا أخي — في عَجَلَتِكَ، وأَسَأْتَ في فَعْلَتِكَ، فَهَلُمَّ نُسْرِعْ إِلَيْها، لَعَلَّنا نَعْثُرُ عَلَيْها؛ فَإِنَّ قَلْبِي يُحَدِّثُنِي بِأَنَّنا قادِمانِ على أَمْرٍ خَطِيرٍ، وشَرٍّ مُسْتَطِيرٍ!»

(٢) حُزْنُ الْأَميرِ



وبذَلَ الْأَميرانِ جُهْدَيْهِما، مُسْرِعَيْنِ في جَرْيِهِما، حَتَّى أَشْرَفا على مَغْناهُما في الْوادِي. وهَتَفا باسْمِها بِأَعْلى صَوْتِهِما، ثُمَّ أَعادا نِداءَهُما، وكَرَّرا دُعاءَهُما؛ فَضاعَتْ صَيْحاتُهُما سُدًى، ولَمْ يُجِبْ نِدَاءَهُما غَيْرُ رَجْعِ الصَّدَى.

فَزَادَتْ حَيْرَةُ «راما» وفَزَعُهُ، واشْتَدَّ ارْتِباكُهُ وجَزَعُهُ، وراحَ يَجْرِي باحِثًا بَيْنَ الْأَشْجارِ والْغُدْرانِ، مِنَقِّبًا في السُّهُولِ والْوِدْيانِ، مُتَفَقِّدًا إِيَّاها في كُلِّ مَكانٍ، دُونَ أَنْ يُسْعِدَهُ الْقَدَرُ، بالْعُثُورِ لَها على أَثَرٍ. فَنَفِدَ (فَرَغَ) صَبْرُهُ، وخَذَلَهُ تَجَمُّلُهُ، وتَمَلَّكَتْهُ الْحَسْرَةُ فَكادَتْ تَقْتُلُهُ،

فَقالَ لِأَخِيه، والْحَزْنُ مُلِحٌ عَلَيْهِ (لا يُمْهِلُهُ) والْأَسَى مُسْتَبِدٌّ بهِ؛ يُضِلُّهُ — عَنْ قَصْدِهِ — ويُذهِلُّهُ: «لَقَدْ سَرَقَها الشَّيْطانُ، وأَصْبَحَتْ في خَبَرِ كانَ!»

فَقالَ الْأَمِيرُ «لَكْشمانُ»: «ما أَظُنُّ ذاكَ، وما أراكَ إلَّا ظافِرًا بالأَمِيرَةِ هُنا أوْ هُناكَ! فَلا تَسْتَسْلِمْ لِلْأَحْزانِ، ولا تَتْرُكْ نَفْسَكَ نَهْبًا لِلْوَساوِسِ والْأَشْجانِ، فَلَعَلَّها رَقَدَتْ على حافَةِ الْغَدِيرِ، مُنْصِتَةً إلى رَنِينِ الْخَرِيرِ؛ فاسْتَسْلَمَتْ لِمَنامِها، واشْتَغَلَتْ بِطَيِّبِ أحْلامِها. أوْ لَعَلَّها جَالِسَةٌ في مَكانٍ بَعِيدٍ أوْ قَرِيبٍ، مَشْغُولَةٌ بِتَأَمُّلاتِها في زَهْرِ «اللُّوتَسِ» الْعَجِيبِ؛ فَإِنَّهُ — إلى نَفْسِها — شائِقٌ حَبِيبٌ. وطالَما أَلِفَتِ الْجُلُوسَ بَيْنَ الْأَزْهارِ، وفي ظِلالِ الْأَشْجارِ، حَيْثُ تَبْهَجُ لِغِناءِ الْأَطْيارِ الشَّجِيّةِ، وتَتَمَتَّعُ بِرائِحَةِ الْوُرُودِ الذَّكِيَّةِ. أوْ لَعَلَّها خَرَجَتْ تَبْحَثُ عَنْكَ في أرْجاءِ الْغابةِ، بَعْدَ أَنْ طالَ انْتِظارُها، وعِيلَ اصْطِبارُها، وأَضْجَرَها طُولُ غَيْبَتِكَ، وانْتِظارُ عَوْدَتِكَ!»

فَلمَّا سَمِعَ ذلِكَ عَاوَدَهُ شيْءٌ مِنَ الْأَمَلِ بَعْدَ الْيَأْسِ. واسْتَأْنَفَ البَحْثَ عَنْها معَ أَخِيهِ — مرَّةً أُخْرَى — في كلِّ ناحِيَةٍ، قاصِيَةٍ ودانِيَةً، حَتَّى جاءَ وَقْتُ الْعَتَمَةِ، ثُمَّ أَعْقَبَهُ أَوانُ الظُّلْمَةِ، فَلَمْ يَثْنِ ذَلِكَ منْ عَزْمِهما، عَنِ الْبَحْثِ طُولَ لَيْلِهِما، حَتَّى أَشْرَقَتْ شَمْسُ الْغَدِ، وارْتَفَعَ ضَوْءُها وامْتَدَّ، فَوَهَنَ الْعَزْمُ مِنْهُما، ودَبَّ الْيَأْسُ إِلَى نَفْسَيْهِما، وأَيْقَنا — حِينَئِذٍ — باخْتِفائِها، واسْتِحالةِ لِقائِها، بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَ سَعْيُهُما قَلِيلَ الْغَناءِ (بِلا فَائِدَةٍ)، وانْطَفَأَ مِنْ قَلْبَيْهِما نُورُ الرَّجاءِ.

(٣) مُناقَشَةُ الأَخَوَيْنِ

فارْتَمَى الْأَمِيرُ عَلَى الْأَرْضِ بِعَزِيمَةٍ خائِرَةٍ، ونَفْسٍ ثائِرَةٍ. وقالَ لِأَخِيه، وَالْحُزْنُ بِنارِهِ يَكْوِيهِ: «كَيْفَ تَرَكْتَها؟ ولماذا خالَفْتَ نَصِيحَتِي وأَهْمَلْتَها؟ أَلا لا أَرَى وَجْهَكَ بَعْدَ الآنَ، وحَسْبُكَ ما جَلَبْتَهُ عَلَيَّ مِنْ فُنُونِ الشَّقاءِ والْأَحْزانِ، وضُروبِ الْبَلَاءِ والامْتِحانِ.»

فاقْتَرَبَ مِنْهُ الأَمِيرُ الصَّغِيرُ مُسْتَعْطِفًا، وقالَ لَهُ مُتَوَدِّدًا مُتَلَطِّفًا: «أناةً — يا أخِي — وصَبْرًا، فَلَيْسَ مِنَ الْحَزْمِ أن يَسْتَسْلِمَ الإنْسانُ لِلْيَأْسِ ما دَامَ حَيًّا، فَإِنَّ اليَأْسَ لا يَجْدُرُ بِغَيْرِ الْجُبَناءِ والْمُتَرَدِّدِينَ، ولا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَدِبَّ إلى قَلْبِ مِثْلِكَ مِنَ الصَّابِرِينَ الْمُجَرِّبِينَ. وَسنَظْفَرُ بِطِلْبَتِنا ولَوْ بَعْدَ حِينٍ، ولَنْ يَعُوقَنا ما نَلْقاهُ في طَرِيقِنا مِنْ شَدائِدَ وَأَهْوالٍ، وأَعْباءٍ ثِقالٍ، عن بُلُوغِ ما نَصْبُو إِلَيْهِ من آمالٍ، فَإِنَّ الشَّجَاعَةَ والْمُثَابَرَةَ — كما تَعْلَمُ —

كَفِيلَانِ بالْوُصُولِ إلى غايَتِنا، والظَّفَرِ بِأُمْنِيَّتِنا، واسْتِرْجاعِ أَمِيرَتِنا؛ ولوْ خَطِفَها الشَّيطانُ «رَقْانا» مَلِكُ الْعفَارِيتِ والْجِنِّ والتَّوابِعِ، وحاكِمُ الْمَرَدَةِ والْأَبَالِسَةِ والزَّوابِعِ.»

فَقال «راما» وَهُوَ يُغالِبُ يَأْسَهُ مُتَجَمِّلًا، وَيَكْتُمُ غَيْظَهُ مُتَحَمِّلًا: «وإلى أيِّ مَكانٍ نَقْصِدُ، وَقَدْ سُدَّتْ دُونَ غايتنا الْأَبْوابُ، وَتَقَطَّعَتْ بِنا الْأَسْبابُ، وضاقَ عَلَيْنا فَسِيحُ الرِّحابِ؟»

فَقالَ أَخوهُ: «صَوْبَ الْجَنُوبِ، يا أَخِي! فما أَكْثَرَ ما سَمِعْتُ أَنَّ مَدِينَةَ الْعَفَارِيتِ الَّتي يَحْكُمُها «رَقْانا» قَرِيبَةٌ دانِيَةٌ، مِنْ تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ النَّائِيَةِ. فَهَلُمَّ بِنا لَعَلَّنا نَظْفَرُ — مِنْ آثارِها — بِما يُهَوِّنُ الصِّعابَ عَلَيْنا، وَيَرْجِعُ الْأَمِيرَةَ (يُعِيدُها) إلَيْنا»

(٤) حَدِيثُ النَّسْرِ

وَسارَ الأَمِيرانِ في الاتِّجَاهِ الْجَنُوبيِّ زَمنًا يَسِيرًا. ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ «راما» أَنْ شَكَرَ أَخاهُ، بَعْدَ أَنْ ظَهر لهُ صَوابُ ما أَبْداهُ، وَصِدْقُ ما اقْتَرَحَهُ وارْتَآهُ؛ فَقَدْ لَقِيا نَسْرًا عَظِيمَ الْجِسْمِ، هائِلَ الْحَجْمِ، يَسِيلُ دَمُهُ الْغَزِيرُ، مِنْ جُرْحِهِ الْكَبِيرِ، فَأَسْرَعا يَسْأَلانِه، وَعَنْ سِرِّهِ يَسْتَوْضِحانِه، فَرَفَع النَّسْرُ رَأْسَهُ، وَهُوَ يُغالِبُ يَأْسَهُ، وَحَيَّاهُما بِإِيماءَةٍ (إشارَةٍ) قَصِيرَةٍ، وَهُوَ يَجُودُ بِأَنْفاسِه الْأَخِيرَةِ. وَقالَ لَهُما وَهُوَ يُحْتَضَرُ، وَقَدْ أَشْرَفَ عَلَى الْخَطَرِ: «لَعَلَّكُما أَيُّها الْأَمِيرانِ، عَنْ أَمِيرَتِكُما تَبْحثانِ، وفِي أَثَرِها تَجِدَّانِ؟»

فَأَصْغَيا إِلَى بَيانِهِ، وَدَهِشا مِمَّا يَسْمعَانِهِ، وَقالا مُتَعَجِّبَيْنِ، وَمِنْ حَدِيثِهِ مُتَحَيِّرَيْنِ: «ما أَصْدَقَ ما حَكَيْتَ، وَأَعْجَبَ ما رَوَيْتَ، فَحَدِّثْنا بِما رَأَيْتَ. وَلا تَبْخَلْ عَلَيْنا بِما تَعْلَمُ مِنْ أَخْبارِها، لَعَلَّنا نُوَفَّقُ — بِهَدْيِكَ — إلى اقْتِفاءِ آثارِها.»

فَأَجابَهُما مُتَأَلِّمًا، وَلِلْقَدَرِ مُسْتَسْلِمًا: «لَقَدْ أُصِبْتُ بِهذا الْجُرْحِ وأنا أَذُودُ (أُدافِعُ) عَنْها وَأَحْمِيها، مِنْ كَيْدِ خاطِفيها. ولكِنَّ «رَقْانا» قَدِ ابْتَدَرَني بِطَعْنَةٍ عاجِلَةٍ، مِنْ حَرْبَتِهِ الْقاتِلَةِ، ثُمَّ طارَ بِمَرْكبَتِهِ، وَفَرَّ بِأَسِيرَتِهِ.»

فَسَأَلَهُ «راما»: «ومِنْ أيِّ طَرِيقٍ مَرَّ؟ وإلى أيِّ ناحِيَةٍ فَرَّ؟»

فَعَجَزَ الطَّائِرُ عَنِ الْكلام، بَعْدَ أَنْ أَلَحَّ عَلَيْهِ السِّقامُ. وَحاوَلَ الأَمِيرانِ عَبَثًا أَنْ يَقِفا نَزِيفَ الدَّمِ لِيُنْقِذاهُ مِنْ صَرْعَتِهِ، أَوْ يُنعِشاهُ مِنْ عَثْرَتِهِ؛ فَلَمْ يَزِدْ حِينَئِذٍ عَلَى هَمْسَةٍ أَسَرَّها

إِلَيْهِمْ، وهُو يُعانِي ضُروبًا مِنْ آلامِ الْمَوْتِ وسَكَراتِهِ، ويُقاسي أَلْوَانًا مِنْ شِدَّتِهِ وغَمَراتِهِ: «إلى الْجَنُوبِ ... جَبَل «رِشْيامُوكا» ... «سُجْرِيڤا» ... مَلك «الڤانار» ... مَعونَتَهُ!»

ثُمَّ كَفَّ عَن الْحَرَكَةِ وَاسْتَحالَ عَلَيْهِ الْكَلامُ، وانْتَظَمَتْ جِسْمَهُ الرِّعْشَةُ، حَتَّى أَسْلَمتْهُ إلى الْحِمامِ (انْتَهَتْ بِهِ إلى الْمَوْتِ).

(٥) جَبَلُ القرُودِ

فَلَمْ يَجدا وَسِيلَةً لِمُكافَأَةِ هذا النَّسْرِ الْكَرِيم، عَلَى صَنِيعِهِ الْعَظِيمِ، وَإِظْهارِ إِجْلالِهما وإِكْبارِهِما، والتَّعْبِيرِ عَنْ ثنائِهِما وشُكْرِهِما، إِلَّا أَنْ يَخُطَّا (يَشُقَّا) لهُ في أَرْضِ الْغابةِ قَبْرًا، وإِنْ قَلَّ ذلِكَ لهُ جَزاءً وأَجْرًا. ثُمَّ دفَنا جُثَّتَهُ في تُرْبَتِهِ، عِرْفانًا لِنَبالَتِهِ، وتَقْدِيرًا لِشَجاعَتِهِ.

ثُمَّ جَدَّدا عَزْمَهُما، واسْتَأْنَفا — إلى الْجَبَلِ — سَيْرَهُما. وطالَتْ رِحْلَتُهما الشَّاقَّةُ في غابَةِ الشَّياطِينِ الْمُظْلِمَةِ أَيَّامًا عِدَّةً، يَحْدُوهُما ضَعِيفُ الْأَمَلِ، حَتَّى بَلَغا سَهْلًا واسِعًا يَلُوحُ في آخِرِهِ ذلِكَ الْجَبَلُ.

فَصاح الْأَمِيرُ الصَّغِيرُ فَرِحًا مَسْرُورًا، وَقالَ لِأَخِيهِ مُبْتَهِجًا مَحْبُورًا: «ها هُو ذا جَبَلُ «رِشْيامُوكا». أَلَيْسَ هذا بَشِيرًا باهْتِدائِنا، وإِيذانًا بالْفَوْزِ على أَعْدائِنا؟»

فَأَجابَهُ أَخُوهُ: «ما أَصْدَقَ أَنْبَاءَكَ، وأَصَحَّ آراءَكَ!»

(٦) سَفِيرُ الْمَلِكِ



ثُمَّ أَسْرَعا صَوْبَ الْجَبَلِ حتَّى بَلَغا سَفْحَهُ، وأرادا أَنْ يَرْتَقِياهُ لَعَلَّهُما يَلْقَيانِ «سُجْرِيڤا». وإِنَّهُما لَيَحْلُمانِ بِتَحْقِيقِ ذلِكَ الْأَمَلِ، إذا بِقِرْدٍ كَبِيرٍ ضَخْمِ الْجُثَّةِ، يَخْرُجُ عَلَيْهِما مِنْ إِحْدَى مَغاراتِ الْجَبَلِ، ثُمَّ يَعْتَرِضُ طَرِيقَهُما، ويَقُولُ لَهُما: «قِفا أَيُّها الرَّجُلانِ، وخَبِّرانِي: ما بالُكُما تُسْرِعانِ؟ وفِيمَ أَنْتُما قادِمانِ؟ وإلى أيِّ مَكانٍ تَقْصِدانِ؟ فَإِنِّي سَفِيرُ «سُجْرِيڤا» وَاسْمِي «هانُومانُ».» فَابتَهَجا بِلِقاءِ هذا السَّفِيرِ، وسُرَّا مِنَ الْقِرْدِ الْكَبِيرِ؛ فَقَدْ رَأَيا دَلائِلَ الشَّهامَةِ وسَماحَةِ النَّفْسِ بادِيَةً عَلَى سِيماهُ، بِرَغْمِ قُبْحِ مَنْظَرِهِ وخُشُونَةِ مَرْآهُ. فَتَوَدَّدَ الْأَمِيرُ إِلَيْهِ، وأَقْبَلَ عَلَيْهِ، وَقَدِ ابْتَهَجَتْ نَفْسُهُ لِلُقْياهُ، وأَيْقَنَ أَنَّهُ قَدْ ظَفِرَ بِما تَمَنَّاهُ. واعْتَزَمَ أَنْ يُفْضِيَ إِلَيْهِ بِقِصَّتِهِ، ويَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى إِنْجازِ خُطَّتِهِ.»

(٧) آثارُ الْأَمِيرَةِ

ولا تَسَلْ عَنْ فَرَحِ الْأَمِيرِ حِينَ أَخْبَرَهُ «هانومانُ» أَنَّهُ رَأَى مَرْكَبَةَ الشَّيْطانِ، سَرِيعَةَ الطَّيَرانِ، مَيَمِّمَةً صَوْبَ الْمِنْطَقَةِ الْجَنُوبِيَّةِ، وهِيَ تُقِلُّ (تَحْمِلُ) أَمِيرةً فَتِيَّةً، وقَدْ أَلْهَمها عَقْلُها الذَّكِيُّ، فَأَلْقَتْ بِوِشاحِها الذَّهَبِي، وعِقْدِها اللُّؤْلُئِيِّ.

وَما رَأَى الْأَمِيرُ الْوِشاحَ والْعِقْدَ، حتَّى غَلَبَهُ الْأَسَى (الْحُزْنُ) وهاجَهُ الْوَجْدُ؛ فَلَمْ يَسْتَطِعْ إِخْفاءَ زَفْرَتِهِ، ولَمْ يَقْدِرْ عَلَى مُغالَبَةِ عَبْرَتِهِ (دَمْعَتِهِ)، فَحَزِنَ «هانومانُ» لِحُزْنِ صاحبِهِ الْجَدِيدِ، وقال لهُ: «لَعَلَّكَ جِئْتَ تَطْلُبُ الْمَعُونَةَ مِنْ «سُجْرِيڤا» مَوْلاي، فَهَلُمَّ معي مُتَتَبِّعًا سَيْرِي وخُطايَ.»

(٨) الْعَرْشُ الْمُغْتَصَبُ

وَسارَ بِهِما السَّفِيرُ مُيَمِّمًا (قاصِدًا) ظَهْرَ الْجَبَلِ حتَّى اعْتَلَياهُ، وما لَبِثا أَنْ بَلَغا قِمَّتَهُ وذُراهُ، وقَدْ أَخْبَرَهُما — في أَثْناءِ سَيْرِهِما — أَنَّ هذا الْجَبَلَ الشَّاهِقَ يَقْطُنُهُ فَصائِلُ لا يُحْصَى عَدَدُها مِنَ الْقُرُودِ الْكِبارِ، يُطْلَقُ عَلَيْها اسْمُ قَبائِلِ «الْڤانار». وقَدْ حَكَمَها «سُجْرِيڤا» زَمَنًا طَوِيلًا، ثُمَّ نازَعَهُ أَخُوهُ «بالي» وَشَنَّ عليهِ غارَةً شَعْواءَ، وحَرْبًا هَوْجَاءِ، انْتَهَتْ بِهَزِيمَةِ «سُجْرِيڤا» هزِيمةً نَكْراءَ. ولَمَّا رَأَى نَفْسَهُ مُعَرَّضًا لِلتَّهْلُكَةِ فَرَّ هارِبًا مِنْ تِلْكَ الْمَمْلَكَةِ. واسْتَأْثَرَ الْغاصِبُ بِعَرْشِ «كِشْكِنْدَةَ»، وبَقِيَ «سُجْرِيڤا» — مُنْذُ سَنَواتٍ يُعانِي الْأَلَمَ والضِّيقَ، بَعْدَ أَنْ حَلَّ جَبَلَ «رِشْيامُوكا» ذلِكَ الْمَنْفَى السَّحِيق. فَأَمَّا أَعْوانُهُ وحاشِيَتُهُ فَقَدِ انْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ، وجَحَدُوا ما أَسْلَفَ لَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، ولَمْ يَبْقَ إِلى جانبِهِ إِلَّا بَعْض جُنودِهِ الْأَوْفياءِ الْأَخْيارِ، وعلى رَأْسِهِمْ «هانومانُ» زعيمُ قَبائِلِ «الْڤانارِ».

(٩) فِي الْمَنْفَى

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ حَدِيثَهُ قائِلًا: «رُبَّما أتاحَ لَكَ الْقَدَرُ فُرْصَةً سَعِيدةً، تُمَكِنُكَ مِنْ مُساعَدَةِ مَلِيكِنا «سُجْرِيڤا» فِي رَدِّ عَرْشِهِ الْمَفْقُودِ، ومُلْكِهِ الْمَنْشُودِ، ما دُمْتَ مُتَنَبِّلًا، تَمْلِكَ ما تَمْلِكُ مِنْ أَسْلِحَةِ النَّاسِكِ الْمَوْفُورَةِ، وسِهامِهِ الْمَسْحُورَةِ، فَإِذا تَمَّ لِمَوْلايَ — بِفَضْلِكَ — النَّصْرُ عَلى

غاصِبِ مُلْكِهِ، فَلَنْ يَتَرَدَّدَ في مُعاوَنَتِكَ، عَلَى هَزِيمَةِ خَصْمِكَ. فَإِنَّهُ وقَوْمَهُ، لَنَا ولِقَوْمِنا أعْدَاءٌ، وخُصُومٌ أَلِدَّاءُ، وكَراهِيَتُنا لهُمْ نامِيَةٌ، وأَحْقادُنا عَلَيْهِمْ باقيَةٌ حامِيَةٌ.»

وَلَمَّا بَلَغُوا قِمَّةَ الْجَبَلِ، وجَدُوا «سُجْرِيڤا» جالِسًا في مَنْفَاهُ، مُسْتَغْرِقًا في حُزْنِهِ مُسْتَسْلِمًا لِأَسَاهُ. ولَمْ يَسْتَمِعْ إلى حَدِيثِ «راما» حتَّى بَرَقَ الْأَمَلُ عَلَى مُحَيَّاهُ، فَقالَ مُخاطِبًا إِيَّاهُ: «ما دُمْتَ تَمْلِكُ عزِيمَتَكَ الْماضِيَةَ، وسِهامَكَ الْقاضِيَةَ، فَقَدْ زالَ عَهْدُ مِحْنَتِنا وَشَقَائِنا، وَضَمِنَّا الْفَوْزَ عَلَى أَعْدائِنا. وَقَدْ أَصْبَحَ نَجاحُنا — بَعْدَ قَلِيلٍ — مَأْمُولًا، وَنَصْرُنا — بِفَضْلِ تَعاوُنِنا — مَكْفُولًا. وَأَنا قَادِرٌ على مُناجَزَةِ الغَاصِبِ وَحْدِي، وَالتَّغَلُّبِ عَلَيْهِ بِجُهْدِي. وَإِنِّي لَعَلَى ثِقَةٍ مِنْ حُسْنِ الْمَصِيرِ، إذا كَفَيْتَنِي مُحارَبَةَ جَيْشِهِ الكَبِيرِ.»

فَتَعاهَدا عَلَى ذلِكَ، وأَقْسَما لَيَظْفَرانِّ بهِ وَلَوْ خاضا الْمَهالِكَ، وَلَيُدْرِكانِّ ما أَراداهُ، وَيَبْلُغانِّ ما تَمَنَّياهُ.

(١٠) مَصْرَعُ الغاصِبِ

فَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ «راما» أَلَّا يُضِيعَ شَيْئًا مِنَ الْوَقْتِ فِي الْأَسَفِ والْعَوِيلِ، وَأَنْ يُعِدَّ عُدَّتَهُ لِلرَّحيلِ. فَبَلَغُوا مَمْلَكَةَ «كِشْكِنْدَةَ» بَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ.

وَكان الْغاصِبُ الْجَرِيءُ «بالي» قَدْ بَلَغَهُ بَعْضُ أَنْبائِهِمْ؛ فَأَسْرَعَ إلى لِقائِهِمْ، وأَعَدَّ لَهُمْ جَيْشًا لا يُحْصَى عَدَدُهُ مِنْ الْأَبْطالِ، مِمَّنْ لا يَخْشَوْنَ الرَّدَى وَلا يَهابُون الْقِتالَ. وَلَمْ يَرَ أَخاهُ حَتَّى هَجَمَ عَليْهِ غاضِبًا مِن جُرْأَتِهِ؛ فَلَقِيَهُ الآخَرُ دُونَ تَهَيُّبٍ لِقُوَّتِهِ، ولا خَوْفٍ مِنْ سَطْوَتِهِ. وَعَلَتِ الصَّيْحاتُ مُتَرَدِّدَةً، مُنْذِرةً بالْوَيْلِ مُتَوَعِّدَةً، مُنْبَعِثَةً مِنَ القِردَيْنِ، مُؤْذِنَةً بالْهَلاكِ والْحَيْنِ.

ووَقَفَ «راما» — بادِئَ الأَمْرِ — مُتَرَقِّبًا أَنْ يَصْرَعَ «سُجْرِيڤا» خَصْمَهُ «بالي»، دُونَ حاجَةٍ إلى مُسَاعَدَتِهِ. ولكِنَّهُ لَمَّا رَأَى قُوَّةَ الْغاصِبِ، خَشِيَ سُوءَ الْعَوَاقِبِ.

وكان «راما» — كَما حَدَّثْتُكَ — نَبَّالًا ماهِرًا، بارِعًا في الرِّمايَةِ قادِرًا. فَسَدَّدَ إلى قَلْبِه سَهْمًا نافِذًا فَأَصْماهُ (أَهْلَكَهُ وَأَرْداهُ)، وَأَفْقَدَهُ الْحَياةَ، وخَرَّ «بالي» صَرِيعَ بَغْيِهِ وأَذاهُ.

(١١) أَفْراحُ النَّصْرِ

وَنادَى الزَّعِيمُ «هانومانُ» جُيُوشَ «بالي» أَنْ يَعُودُوا إلى طاعَةِ مَلِيكِهِم «سُجْرِيڤا». وَكانوا جَمِيعًا يُحِبُّونَهُ، ولَمْ يَدِينُوا بِطاعَة «بالي» إِلَّا خَوْفًا مِنْ جَبَرُوتِهِ وَبَطْشِهِ. وَقَدْ فَرِحُوا بِانْتِصَارِ مَلِيكِهِمُ الْأَوَّلِ، وَهَتَفُوا لهُ مُتَحَمِّسِينَ، وأَقْبَلُوا عليْهِ مُهَنِّئِينَ.

وشَكَرَ الْمَلِكُ لِمُنْقِذِهِ «راما» وَكَرَّرَ لَهُ وَعْدَهُ بِأَنْ يُطْلِقَ جُيُوشَهُ فِي أَنْحاءِ الْبِلَادِ — مَتَى عادَ إِلَى حاضِرَةِ مُلْكِهِ — لِيُوَاصِلُوا الْبَحْثَ عَنْ «سِيتا»، ويُنْزِلُوا بِخَصمِهِ الشَّيْطانِ، ما هُوَ جَدِيرٌ بِهِ مِنَ الذِّلَّةِ والْهَوانِ، جَزاءَ ما أَسْلَفَ مِنْ بَغْيٍ وعُدْوَانٍ.

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ سِرَاعًا بَعْدَ أَنْ عادَ «سُجْرِيڤا» إلى حاضِرَةِ الْمُلْكِ، واسْتَتَبَّ لَهُ الْأَمْرُ، وَشَغَلَتْهُ أَفْرَاحُ النَّصْرِ عَنْ تَحْقِيقِ وَعْدِهِ، وَالْوَفاءِ بِعَهْدِهِ. وانْقَضَتِ الشُّهورُ مُسْرِعَةً، وهُوَ لا يُفِيقُ مِنْ سَكْرَةِ الانْتِصارِ، وَلا تَنْقَضِي وَلائِمُهُ لَيْلَ نَهارَ، غَيْرَ مُفَكِّرٍ فِي إِعْدادِ الْجَيْشِ الْكَبِيرِ، لِتَحْقِيقِ طِلْبَةِ الْأَمِيرِ.

(١٢) الْجُيُوشُ الْأَرْبَعَةُ

وَخَجِلَ «هانومانُ» — زَعِيمُ الْقُرُودِ — مِنْ إِغْضاءِ مَوْلاهُ، وتَهاوُنِهِ فِي إِبلاغِ الْأَمِيرِ مُبْتَغاهُ، فَذَهَبَ إِلَيْهِ رَاجِيًا مُسْتَعْطِفًا، وَتَحَيَّنَ فُرْصَةً سانِحَةً لِتَذْكِيرِهِ بِوَعْدِهِ مُتَلَطِّفًا. وَما زالَ يَبْذُلُ جُهْدَ حِيلَتِهِ حَتَّى أجابَهُ «سُجْرِيڤا» إلى رَغْبَتِهِ، وَأَمَرَ بِتَوْجِيهِ أَرْبَعَةٍ مِنَ الْجُيُوشِ، إلى جِهاتِ الْعالَمِ الْأَرْبَعِ؛ فاتَّجَهَ أَحَدُها إلى الشّمالِ، والثَّانِي إلى الْجَنُوبِ، والثَّالِثُ إلى الشَّرْقِ، والرَّابِعُ إلى الْغَرْبِ. وأَمَرَهُمْ أنْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ، حَتَّى يَهْتَدُوا إلى الْبَلَدِ الَّذِي تَحُلُّ فِيهِ «سِيتا» و«رَڤانا».



وَمَرَّ على «راما» زَمنٌ طَويلٌ قَضاهُ على أَحَرِّ مِنَ الْجَمْرِ، مُتَرَقِّبًا عَوْدَةَ أُولئِكَ الْجُنُودِ بِفارِغِ الصَّبْرِ. ثُمَّ عادَتْ ثَلَاثَةَ مِنَ الْجُيُوشِ، ولَمْ يَبْقَ إِلَّا جَيْشُ الْجَنُوبِ يَقُودُهُ صَدِيقُهُ الْوَفِيُّ «هانومانُ» الَّذِي لا يَجُودُ بِمِثْلِهِ الزَّمانُ. ومَرَّتْ عِدَّةُ أَشْهُر دُونَ أَنْ يَرْجِعَ مِنْ ذلِكَ الْجَيْشِ نَفَرٌ، أَوْ يَصِلَ مِنْهُ خَبَرٌ، فَتَوَقَّعَ أَهْلُ «كِشْكِنْدَةَ» أَنْ يَكُونَ قَدْ لَحِقَ بِهِ شَرٌّ، أَوْ أَصابَ قائِدَهُ ضُرٌّ.

(١٣) جَيْشُ الْجَنُوبِ

وَلا أَكْتُمُ — أَيُّها الْقارِئُ الْعَزِيزُ — أن جَيْشَ الْجَنُوبِ — وعَلَى رَأْسِهِ «هانومانُ» — قَدْ تَعَرَّضَ لِأَخْطارِ عَظِيمَةٍ، وأَهْوَالٍ جَسِيمَةٍ. وقَدْ كُتِبَتِ السَّلَامَةُ لِقائِدِه، بَعْدَ أَنِ اسْتَهْدَفَ لِلْهَلاكِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ. ولكِنَّ عَزِيمَتَهُ الْماضِيَةَ لَمْ يَتَطَرَّقْ إِلَيْها الْوَهَنُ، ولَمْ تَزْدَدْ إِلَّا قُوَّةً على الْأَحْدَاثِ وَالْمِحَنِ، فَقَدْ أَقْسَمَ لَيَعُودَنَّ بِما يُدْخِلُ السُّرُورَ على قَلْبِ صاحِبِهِ مِنْ أَخْبارِ «سِيتا». فَلَمْ يُبالِ شَيْئًا فِي سَبيلِ هذَا الْعَمَلِ، وَدَرْكِ ذلِك الأَمَلِ.

وَأَوْغَلَ بِجَيْشِهِ — صَوْبَ الْجَنُوبِ — بَيْنَ الْأَدْغالِ، مُتَنَقِّلًا مِنْها إِلَى الْمَناقِعِ (جَمْع مُسْتَنْقَعٍ) والرِّحابِ، الْمُمْتَدَّةِ على شَاطِئِ الْبَحْرِ الْعُبابِ، وفَوْقَ السُّهُولِ والْهِضابِ، صاعِدًا التِّلالَ، مُرْتَقِيًا قِمَمَ الْجِبالِ.

(١٤) حَدِيثُ النَّسْرِ

وَما زالَ يُواصِلُ بَحْثَهُ بِهِمَّةٍ لا تَعْرِفُ الْكَلالَ، وعَزْمٍ لا يَدِبُّ إلَيهِ الْمَلَالُ، حَتَّى انْتَهَى بِهِ الْمَطافُ إلَى رَأْسِ طَوْدٍ أَشَمَّ (جَبَلٍ عَظِيمٍ)، عالِي الْقِمَمِ، حَيْثُ الْتَقَى بِنَسْرٍ اسْمُهُ «سَمْپاتي» بَلَغَتْ بِهِ السِّنُّ حَدَّ الْهَرَمِ، وهُوَ كَبِيرُ الْحَجْمِ، عَظِيمُ الْجِسْمِ. وقَدْ عَرَفَ — مِنْ حَدِيثِهِ — أَنَّه أَخُو «چاتايُو» الَّذِي لَقِيَ مَصْرَعَهُ في سَبيلِ حِمايَةِ الأميرَةِ. وكانَ هذا النَّسْرُ مَشْغُوفًا — مُنْذُ نَشْأَتِه — بِغايَةٍ لا سَبيلَ إلَى دَرْكِها، ولا أَمَلَ في الْفَوْزِ بِها؛ فَقَدْ وَطَّدَ الْعَزْمَ عَلَى أَنْ يَرُوضَ جَناحَيْهِ عَلَى مُحاوَلَةٍ جَرِيئَةٍ، لَمْ يُفَكِّرْ في مِثْلِها أَحَدٌ منْ قَبْلِه؛ تلكَ أَنْ يُواصِلَ سَعْيَهُ حَتَّى يَبْلُغَ الشَّمْسَ، وهيَ أَقْصى أَمَلِه. وَقدْ بَلَغَ — في طَيَرانِه — حَدًّا مِنَ الارْتِفاعِ لَمْ تَصِلْ إلَيْهِ النُّسُورُ، في سَوابِقِ الْعُصُورِ. ثُمَّ خَذَلَتْهُ قُواهُ، فَهَوَى إلى ذِرْوَةِ الْجَبَلِ مِنْ شَاهِقِ عُلاهُ، فَهِيضَ (انْكَسَرَ) جَناحاهُ، وكادَ يَفْقِدُ الْحَياةَ. وهذا جَزاءُ مَنْ يُسْرِفُ في الآمالِ، ويَجْرِي وَراءَ الْمُحالِ.

وقَدْ أَفْضَى إلى «هانومانَ» أَنَّه رأَى — في أَثْناءِ تَحْلِيقِه — مَرْكَبَةَ «رڤانا» تَهْبِطُ جَزِيرةَ «لَنْكا» وفيها أَسِيرَةٌ غاضِبَةٌ، ثائِرَةٌ صاخِبَةٌ، لا يَشُكُّ في أَنَّها «سِيتا» الَّتي يَبْحَثُ عنْها. ولكِنَّهُ يَخْشَى أَنْ تَكُونَ فُرْصَةُ نَجاتِها قَدْ فُوِّتَتْ علَيْه، وأَفْلَتَتْ مِنْ يَدَيْهِ، فابْتَهَجَ «هانومانُ» بِما سَمِعَ، وقالَ لَهُ: «لَنْ تَضِيعَ الْفُرْصَةُ — يا سَيِّدِي — فَإِنِّي مُسْرِعٌ إلى إنْقاذِها، وَمَعِي مِنْ جُيُوشِ «الْڤانار»، أَشْجَعُ الشُّجْعانِ، وقَدْ عَزَمْنا عَلَى غَزْوِ ذلِكَ الشَّيْطانِ.»

فَقالَ لَهُ «سَمْپاتي»: «إِنَّ الْبَحْرَ ذا الأَمْوَاجِ الثَّائِرَةِ يَكْتَنِفُ جَزِيرَةَ «لَنْكا» مِنْ كُلِّ جِهاتِها، ويُحِيطُ بِها منْ جَمِيعِ جَنَباتِها. وَلَيْسَ في قُدْرَةِ أَحَدٍ أَنْ يَبْلُغَها إلَّا ذلِكَ الشَّيْطانُ، وأَعْوانُهُ مِن الْعَفارِيتِ والْجانِّ.»

(١٥) عُبُورُ البحرِ

وَلَمْ يَكُفَّ هذا الْكَلامُ مِنْ دَأْبِ «هانومانَ»، بَلْ ضاعَفَ هِمَّتَهُ، وَقَوَّى عَزْمَتَهُ. وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَعُودَ إلى صاحِبِهِ «راما» لِيُخْبِرَهُ بِما انْتَهَى إِلَيْهِ سَعْيُهُ، بَلْ عَزَمَ عَلَى زِيارةِ «لَنْكا» لِيَتَعَرَّفَ بِنَفْسِهِ خُطَطَ الأَعْداءِ ويَزِنَ قُوَّتَهُمْ، وَيَتَكَشَّفَ الْمَكانَ الَّذِي سَجَنُوا فِيهِ أَسِيرَتَهُمْ، ويُدَبِّرَ — لإِطْلاقِ سَراحِها — خُطَّةً بارِعَةً، وطَرِيقَةً نَاجِعَةً.

فَأَمَرَ جَيْشَهُ بالْبَقاءِ — حَيْثُ هُوَ — رَيْثَما يَرْتادُ الطَّرِيقَ، وَيَضْمَنُ لَهُمُ الْفَوْزَ وَالتَّوْفِيقَ. وذَهبَ «هانومانُ» حَتَّى بَلَغَ شَاطِئَ الْبَحْرِ، فَأَيْقَنَ بِصِدقِ ما قالَهُ صَدِيقُهُ النَّسْرُ، ورأَى — مِنْ أَهْوالِهِ وَعَجائِبِهِ — بُعْدَ نَظَرِ صاحِبِهِ، فيما حَدَّثَ بِهِ.



وَعَرَفَ أَنَّهُ كانَ جادًّا حين حَذَّرَهُ أَنْ يُغَرِّرَ بِنَفْسِهِ في تِلكَ الشِّعابِ والْمَسَالِكِ، وَهِيَ مَمْلُوءَةٌ بالأَخْطارِ وَالْمَهالِكِ؛ فَقَدْ لاحَتْ جَزِيرَةُ «لَنْكا» الْمَسْحُورَةُ عَلَى مَسافَةٍ بَعيدَةٍ في عُرْضِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ بِها مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِيها، فاسْتَحالَ بُلُوغُها عَلى غَيْرِ أَهْلِيها. وَلكِنَّ الْعَزِيمَةَ الْوَثَّابَةَ لا تَقِفُ عَقَبَةٌ دُونَ تَحْقِيقِ أمانِيها، وَلا يَعْتَرِضُها في سَبِيلِ أَهْدافِها شَيْءٌ يَعُوقُها أَوْ يَثْنِيها. وكانَ «هانومانُ» سَبَّاقَ الْخَطْوِ، بارِعًا في الْعَدْوِ، جَرِيءَ الْوَثَباتِ، سريعَ الْقَفزاتِ، فَأَغْراهُ ذلِكَ بالتَّفكِيرِ في مُحَاولَةٍ خَطِيرةٍ، لَمْ يُفَكِّرْ في مِثْلِها — مِنْ أَبْناءِ جِنْسِه — أَحَدٌ، فَقَدِ اعْتَزَمَ أَنْ يَظْفَرَ بِطِلْبَتِهِ، أَوْ يَمُوتَ في سَبيلِ غايَتِهِ، وَقَرَّرَ أَنْ يَقْفِزَ مِنْ شاطِئِ الْبَحْرِ إلى شاطِئِ الْجَزِيرَةِ، غَيْرَ مُكْتَرِثٍ بالأَمْواجِ الثَّائِرَةِ الْهائِجَةِ.

وَما أَبْرَمَ هذا الْعَزْمَ حتَّى ارْتَقَى — مِنْ فَوْرِهِ — ذِرْوَةَ صَخْرَةٍ ناتِئَةٍ، ثُمَّ قَفَزَ فِي الْهَواءِ قَفْزَةً عالِيَةً، عَبَرَ بِها إلى الجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ.

(١٦) في جَزِيرَةِ «لَنْكا»

وَحِينَئِذٍ سُرِّيَ عَنْ نَفْسِهِ ما أَلَمَّ بِها مِنَ الضِّيقِ، بَعْدَ أَنْ لاحَتْ لَهُ بَشائِرُ التَّوْفِيقِ. وَقَدِ اشْتَدَّ عَجَبُهُ مِمَّا رَأَى في تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْمَسْحُورَةِ، مِنْ رَوائِعِ الْمَناظِرِ الطَّبِيعِيَّةِ الْكَثِيرَةِ الْمَوْفُورَةِ؛ مِمَّا تَخْلُبُ الأَلْبابَ رُؤْيَتُهُ، وَتَبْهَرُ الْعُقُولَ فِتْنَتُهُ. وَقالَ في نَفْسِهِ: «إِنَّ مَواطِنَ الشَّرِّ

مَصْحُوبَةٌ دائِمًا بالْمَناظِرِ اللَّطِيفَةِ، وَالْمَباهِجِ الظَّرِيفَةِ، لِتَجْتَذِبَ إِلَيْها النُّفُوسَ الضَّعِيفَةَ. كما أنَّ مَواطِنَ الْخَيْرِ مَحْفُوفَةٌ بالْمَكارِهِ والْعَقَباتِ؛ لِتُبْعِدَ عَنْها الْعَزائِمَ الْمُتَرَدِّداتِ، وَالْهِمَمَ الْفاتِرَاتِ.»

وَقَدْ رَأَى الْحَشائِشَ النَّاعِمَةَ — تَحْتَ أَقْدامِهِ — مُرَصَّعَةً بالْأَزْهارِ. وَأَبْصَرَ — مِنْ حَوْلِهِ — بَدَائِعَ النَّباتِ والْأَشْجارِ، مُحَمَّلَةً بِأَطْيَبِ الْفاكِهةِ وَأَلَذِّ الثِّمارِ. وَلاحَ — لِعَيْنَيْهِ — مَنْظرُ الْمَدِينَةِ الْبَهِيُّ وَسُورُها الذَّهَبِيُّ، وتَبَدَّتْ — لِناظِرَيْهِ — بُرُوجُها بيضًا عاليَةً، مُخْتالةً زاهِيَةً، بِأَنْفَسِ اللَّآلِئِ حالِيَةً، كأَنَّما بُنِيَتْ مِنَ الْأَحْجارِ الْكَرِيمَةِ، والدُّرَرِ الْيَتِيمَةِ. وهِيَ تُحِيطُ بِقَصْرِ الشَّيْطانِ «رَڤانا»، وقَدِ ارْتَفَعَتْ — مِنْ ذلِكَ الْقَصْرِ — جُدْرانُهُ الشَّاهِقَةُ، وحِيطانُهُ السَّامِقَةُ؛ فَلاحَتْ — وراءَ الْأَسْوارِ — مِنْ أَبْعَدِ مَدًى للنَّاظِرِينَ، فِتْنَةً لِلرَّائِينَ، وجَمالًا لِلمُجْتَلِينَ (النَّاظِرِينَ).

(١٧) في ظَلامِ اللَّيْلِ

فَقالَ «هانومانُ» في نَفْسِهِ: «ما أَشُكُّ في أَنَّ الأَمِيرَةَ مُسْتَخْفِيَة في هذهِ الْمَدِينَةِ؛ فَلَأَصْبِرَنَّ مُدَّةً يَسِيرَةً، حَتَّى يَنْقَضِيَ النَّهارُ، ويَسْتَخْفِيَ نُورُهُ عَنِ الْأَبْصارِ.»

ثُمَّ صَبَرَ خارِجَ الْمَدِينَةِ — حَتَّى يَجِنَّ اللَّيْلُ — ودَبَّرَ خُطَّةً مُحْكَمَةً، فَحَوَّلَ نَفْسَهُ قِرْدًا صَغِيرًا، بِما أُوتِيَ مِنْ فُنُونِ سَحْرِهِ وبَرَاعَتِهِ؛ حَتَّى لا يَسْتَرْعِيَ الْأَنْظارَ بِضَخامَتِهِ. ثُمَّ تَسَلَّقَ أَسْوارَها الذَّهَبِيَّةَ، وقَدْ بَذلَ جَهْدَهُ في الاسْتِخْفاءِ عَنِ الْعِيانِ، مُتَسَلِّلًا بَيْنَ الْجُدْرانِ.

(١٨) في الْقَصْرِ الشَّيْطانِيِّ

ورأى الشَّوَارِعَ فِيها رَحْبَةً، يَخْفُرُها حُرَّاسٌ مِنَ الْمَرَدَةِ والعَفارِيتِ. ولكِنَّهُمْ لَمْ يُبْصِرُوهُ لِصِغَرِ حَجْمِهِ، وضَآلَةِ جِسْمِهِ. فَأَسْرَعَ إلى أَبْوابِ الْقَصْرِ الشَّيْطانِي الْكَبِيرِ، وبَحَثَ في جميعِ أَنْحائِهِ وأَرْجائِهِ، وَحُجُراتِهِ ومَخادِعِهِ وأَبْهائِهِ، وفَتَّش أَثاثَهُ وفُرُشَهُ، وأَطالَ الْبَحْثَ والنَّظَرَ، دُونَ أَنْ يَعْثُرَ لِلْأَمِيرَةِ عَلى أَثَرِ.

وقَدْ أَدْهَشَتْهُ رَوَائِعُ الصَّنْعَةِ ونَفائِسُ الْفَنِّ الْمُبْدَعَةُ، وفَتَنَهُ ما رآهُ، في كلِّ مَكانٍ حَلَّ بِهِ واجْتَلاهُ. وكانَ مِنْ أَعْجَبِ ما أَعْجَبَهُ مِنْ تِلكَ التُّحَفِ الذَّهَبِيَّةِ، الْمُرَصَّعَةِ بِكَرائِمِ

الْأَحْجارِ اللُّؤْلُؤِيَّةِ — مِمَّا غَصَّ بِهِ الْقَصرُ (ازْدَحَمَ) — تِلْكَ الأَرِيكَةُ الْبَلُّورِيةُ الَّتي رَقَدَ عَلَيْها الشَّيْطَانُ «رَقْانا». وكانَ حِينَئِذٍ — مُسْتَغْرِقًا في سُباتٍ (نَوْمٍ) عَمِيقٍ، فَتَأَمَّلَ «هانومانُ» في وَجْهِ ذلِكَ الإِبْلِيسِ، وأَرادَ أَنْ يَبْتَدِرَهُ بِضَرْبَةٍ قاصِمَةٍ، وطَعْنَةٍ حاسِمَةٍ، تَصْرَعُهُ وتُجَدِّلُهُ، وتُرِيحُ الْعالَمَ مِنْ أذاهُ وتَقْتُلُهُ. ولكِنَّهُ رَأَى مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَبْدَأَ بِإِنْقاذِ الأَسِيرَةِ، وتَخْلِيصِ الأَمِيرَةِ، قَبْلَ أَنْ يَلْجَأَ إلى الْقُوَّةِ، ويُصاوِلَ عَدُوَّهُ، فَسارَ مُتَرَفِّقًا حَتَّى بَلَغَ دُورَ النِّساءِ الْجِنِّيَّاتِ، وتَأَمَّلَ وُجُوهَهُنَّ الْقَبِيحاتِ. وكُنَّ — حِينَئِذٍ — مُسْتَسْلِمَاتٍ لِلْكَرَى (مُسْتَغْرِقاتٍ في النَّوْمِ)، فَرَآهُنَّ دَمِيماتِ الصُّوَرِ، قَبِيحاتِ الْوُجُوهِ؛ فَأَيْقَنَ — بَعْدَما رَآهُ مِنْ دَمامَةِ وُجُوهِهِنَّ — أَنَّ الأَمِيرَةَ لَيْسَتْ إِحْداهُنَّ.

وما زالَ يُواصِلُ الْبَحْثَ في أَنْحاءِ الْقَصْرِ الشَّيْطانِيّ كُلِّهِ، حَتَّى لَمْ يَدَعْ مكانًا فِيهِ إِلَّا رَآهُ، دُونَ أَنْ يُكْتَبَ لهُ النّجاحُ في مَسْعَاهُ.

(١٩) السُّرادِقُ الأَبْيَضُ

فَخَرَجَ إلى ضَوْءِ القَمَرِ مَرَّةً أُخْرَى، وقَدِ اعْتَزَمَ أَنْ يُفَتِّشَ صُرُوحَ الْمَدِينَةِ (قُصُورَها)، وبُيُوتَها وَدُورَها، باذِلًا جَهْدَ حِيلَتِهِ، لَعَلَّهُ يَهْتَدِي إلى طِلْبَتِهِ.

وأَرْهَفَ سَمْعَيهِ (أُذُنَيْهِ) وأَدارَ ناظِرَيْهِ، فَرَأى سُرادِقًا صَغِيرًا يَلُوحُ لِعَيْنَيْهِ، وهُوَ يَكادُ — لِصِغَرِهِ — يَخْتَفِي عَنِ الأَبْصارِ، لِما يَكْتَنِفُهُ مِنْ الأَشْجارِ. وقَدْ ظَهَرَ فَجْأَةً حِيالَهُ، فَجَدَّدَ آمالَهُ، مُتَبَدِّيًا كأَنَّهُ نُقْطَةٌ بَيْضاءُ في رُقْعَةٍ سَوْداءَ.

فَأَسْرَعَ إِلَيْهِ حَتَّى داناهُ، وتَلَطَّفَ في سَعْيِهِ لِيَضْمَنَ الْفَوْزَ في مَسْعاهُ، حَتَّى إذا جاسَ خِلَالَهُ رَأَى فِيهِ ما أَدْهَشَهُ وهالَهُ، وأَبْصَرَ فَتاةً رائِعَةَ الْجَمالِ، نادِرَةَ الْمِثالِ؛ فَأَيْقَنَ أَنَّها الأَمِيرَةُ، الَّتِي أَخَذَها الشَّيْطانُ أَسِيرَةً.



فاسْتَوْلى عَلَيْهِ الْمَرَحُ والْحُبُورُ، وكاد يَصْرُخُ مِنْ فَرْطِ السُّرُورِ. ولكِنَّهُ جاهَدَ نَفْسَهُ حَتَّى لا يَطْغَى عَلَيْهِ الْفَرَحُ فَيَعُوقَهُ عَنِ النَّجاحِ، وَيَفْتَضِحَ أَمْرُهُ لِأَعْدائِهِ شَرَّ افْتِضاحِ. وقَدْ أَبْصَرَها راقِدَةً يُحِيطُ بِها حارِساتٌ مِنَ العِفْرِيتاتِ، فَاسْتَمَعَ إلى أَنَّاتِها الْخافِتَةِ الْهامِسَةِ، وأَدْرَكَ ما تُعَانِيهِ تِلْكَ الأَسِيرَةُ التَّاعِسَةُ. وخَشِيَ أَنْ يُنادِيهَا باسْمِها، فَتَسْتَيْقِظَ — مَذْعُورَةً — من نوْمِها، ورُبَّما هَبَّتْ صارِخَةً مِنْ سُباتِها، فَنَبَّهَتْ حارِساتِها.

فاسْتَعانَ بالصَّبْرِ ولاذَ بالصُّماتِ (الْتَجأَ إلى السُّكاتِ)، حَتَّى لا تَقَعَ عَلَيْهِ أَعْيُنُ الْجِنِّيَّات. وتَرَقَّبَ فُرْصَةً تُمَكِّنُهُ مِنَ الْكَلامِ، وتُبْلِغُهُ الْمَرامَ.

(٢٠) في الصَّباحِ الباكِرِ

وَبَدَتْ تَباشِيرُ الصَّباحِ وَلاحَ الْفَجْرُ، ثُمَّ أَشْرَقَتْ فانْبَعَثَتِ الأَبْواقُ تُدَوِّي أَصْواتُها في جَنَباتِ الْقَصْرِ. وسَمِعَ وَقْعَ أَقْدامِ «رَقانا» — وهُوَ قادِمٌ إلى السُّرادقِ — وَأَبْصَرَهُ وَهُوَ يَدْنُو من الأَمِيرةِ، وَيُحاوِرُها مُسْتَعْطِفًا يُلْقِي إِلَيْها مَعاذِيرَهُ: «لَقَدْ رَجَوْتُكِ — وَما زِلْتُ أَرْجُوكِ إِلَى الْيَوْمِ — أَنْ تَنْسَيْ «راما» وَتَقْبَلِي رَجائِي راضِيَةً مَشْكُورَةً؛ لِتُصْبِحِي مَلِكَةً عَلَى عَرْشِ هذِهِ الْجَزِيرَةِ، وهِيَ — كما رَأَيْتِها — عَرُوسُ بِلادِ الدُّنْيا. وقد جِئْتُ إِلَيْكِ — عَلى عادَتِي فِي كُلِّ صَباحٍ — أُسائِلُكِ: بِماذا أَنْتِ قاضِيَةٌ؟ أَغاضِبَةٌ عَلَيَّ أَمْ راضِيَةٌ؟»

فَأَجابَتْهُ قائِلَةً: «الْمَوْتُ أَحَبُّ إلى نَفْسِ الْحُرِّ الْكَرِيمِ، مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ غَدْرٍ ذَمِيمٍ، فاذْهَبْ عَنِّي أَيُّها الشَّيْطانُ الرَّجِيمُ!»

فَحاولَ أَنْ يَتَرَضَّاها، وَيَسْتَجْلِبَ صَفْحَها عَنْهُ ورِضاها. وَطالَ بَيْنَهُما الْحِوارُ، فَلَمْ يَجِدْ مِنْها غَيْرَ الْعِنادِ والإِصْرارِ، فخرَجَ مِنَ السُّرادِقِ غاضِبًا، وَقالَ يَتَوَعَّدُها لاعِنًا صاخِبًا: «ما دُمْتِ تَأْبَيْنَ إِلَّا تَمادِيًا في غُرُورِكِ وَضَلالِكِ، فَلا بُدَّ مِنْ إِرْغامِ أَنْفِكِ وَإِذْلالِكِ.»

(٢١) مُفاجَأَةٌ سارَّةٌ

وَلَمْ يُفارِقْها الشَّيْطانُ، حَتَّى سَنَحَتِ الْفُرْصَةُ لِلزَّعِيمِ «هانومانَ»؛ فَأَسَرَّ إلى الأَمِيرةِ باسْمِ «راما»، وبَلَّغَها عَنْهُ تَحِيَّةً وَسَلامًا، وَشَوْقًا وَهُيامًا، وَأَفْضَى إِلَيْها بِما قالَهُ في هَمْسٍ خَفِيٍّ، وَبَيانٍ جَلِيٍّ.

فَانْتَفَضَتِ الأَمِيرةُ مَدْهُوشَةً مِمَّا سَمِعَتْ، وَتَلَفَّتَتْ حَوْلها وَنَظَرَتْ، فَلَمْ تَرَ إِلَّا قِرْدًا صغِيرًا أمامَها؛ فَأَيْقَنتْ أَنَّها كانَتْ تُناجِي أَحْلامَها.



فَهَمَسَ باسْمِهِ — مَرَّةً أُخْرَى — في صَوْتٍ خَفِيٍّ، وأَظْهَرَ لَها خاتَمَهُ الذَّهَبِيَّ، وَقَدْ نُقِشَ فِيهِ اسْمُهُ، وَطُبِعَ عَلَيْهِ رَسْمُهُ، فَكادَ يُغْمَى عَلَيْها مِنْ فَرْطِ الدَّهْشَةِ والسُّرورِ، والْبَهْجَةِ والْحُبُورِ. ولكِنَّ «هانومانَ» تَوَسَّلَ إِلَيْها يَرْجُوها، وإلى طَرِيقِ الْحَزْمِ يَدْعُوها، أَنْ تَعْتَصِمَ بِشَجاعَتِها وَصَبْرِها، حَتَّى تُخْفِيَ — عَنْ حارِساتِها — حَقيقةَ أَمْرِها، وَإِلَّا حَبِطَتْ (بَطَلَتْ) خُطَّتُه، وانْكَشَفَتْ حِيلَتُهُ. فَتَمالَكَتِ الأَمِيرةُ، وَبَذَلَتْ غايَةَ جُهْدِها، في كِتْمانِ وَجْدِها، وَأَفْلَحَتْ في التَّغَلُّبِ عَلَى دَهَشِها، ثُمَّ ما لَبِثَتْ أَنِ اسْتعادَتْ رَباطَةَ جَأْشِها. وَلَقَدْ فَطِنَتِ الْحارِساتُ إلى وُجُودِ ذلِكَ الْقِرْدِ الصَّغِيرِ، ولكِنَّهُنَّ لَمْ يَحْسَبْنَ — حينئذٍ — أنَّ أَمْرَهُ جَلِيلٌ خَطِيرٌ.

وَانْتَهَزَ «هانومانُ» فُرْصَةً سانِحَةً؛ فَأَفْضَى إلى الأَمِيرةِ (أَخبَرَها) أَنَّهُ عائِدٌ إِليْها بَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ، لِيُعِيدَها إلى حُرِّيَّتِها بَعْدَ ما كابَدَتْهُ في ذلِكَ الْأَسْرِ الطَّوِيلِ، فَقالَتْ لهُ تُحَذِّرُهُ، وبِرَأْيِها تُبَصِّرُهُ: «لا تَتَهاوَنْ في إِحْضارِ جَيْشٍ عَظِيمٍ، لِقَهْرِ ذلِكَ الإِبْلِيسِ الرَّجِيمِ، وإِلَّا كُتِبَتْ عَلَينا الْهَزِيمَةُ والْخِذْلانُ، وظَفِرَ بِنا ذلِكَ الشَّيْطانُ.»

فقالَ «هانومانُ»: «اطْمَئِنِّي بالًا، واسْعَدِي حالًا؛ فَإِنَّ الْفَوْزَ مِنَّا مَكْفُولٌ قَرِيبٌ، وَلِكُلِّ مُجْتَهِدٍ — مِنْ سَعْيِهِ — نَصيبٌ.»

(٢٢) ثَوْرَةٌ مُفاجِئَةٌ

وَثَمَّ وَدَّعَها وقَدِ اعْتَزَمَ أَنْ يَرْحَلَ عَنْ مَدِينَةِ الشَّيْطانِ، ثُمَّ يَعُودَ إِلَيْها بِما لَدَيْهِ مِنْ أَنْصارٍ وأَعْوانٍ، بَعْدَ أَنْ يُحْكِمَ خُطَّتَهُ، وَيُكْمِلَ قُوَّتَهُ. ولكِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَرَّ بِهِ خَاطِرٌ جَدِيدٌ، أَذْكَرَهُ بِما لَقِيَتْهُ الْأَمِيرَةُ في ذلِكَ الْمَنْفَى الْبَعِيدِ، مِنْ فُنُونِ الشَّقاءِ والتَّشْرِيدِ، وَضُرُوبِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ، فامْتَلَأَتْ نَفْسُهُ حِقْدًا عَلَى أَعْدائِهِ، وَأَذْهَلَهُ عَظِيمُ إِخْلاصِهِ وَوَفَائِه، وَصادِقُ حُبِّهِ — لِصاحِبِهِ — وَوَلائِه؛ فَنَسِيَ كلَّ شَيْءٍ غَيْرَ الانْتِقامِ مِنَ الشَّيْطانِ وَإِذْلالِ كِبْرِيائِه، فَرَجَعَ إِلَى حَجْمِهِ الطَّبِيعِي الْأَوَّلِ دُونَ أَنْ يَتَبَصَّرَ في الْعاقبَةِ، وانْدَفَعَتْ نَفْسُهُ ثائِرَةً غاضِبَةً؛ فاقْتَلَعَ الشَّجَرَ والصَّخْرَ، وَقَذَفَ بِها عَلَى ذلِكَ الْقَصْرِ؛ فَأَسْرَعَتْ إِلَيْهِ الْعَفارِتَةُ واكْتَنَفَتْهُ زَرافاتٍ (أَحاطَتْ بِهِ جماعاتٍ). وَحِينَئِذٍ أَدْرَكَ ما جَرَّهُ إِلَيْهِ فَرْطُ تَهَوُّرِه، وَقِلَّةُ احْتِياطِهِ وَتَبَصُّرِه، وَعَرَفَ خَطَأَهُ في الإِقْدامِ عَلَى عَدُوِّه قَبْلَ أَنْ يُهَيِّئَ لِلْأَمْرِ عُدَّتَهُ، وَيُعِدَّ لِلنَّصْرِ خُطَّتَهُ.

وَلَمْ يَسْتَطِعِ النُّكُوصَ عَلَى عَقِبَيْهِ بَعْدَ أَنِ افْتَضَحَ — لِأَعْدَائِهِ — أَمْرُهُ، وَذاعَ لَهُمْ سِرُّهُ؛ فاقْتَلَعَ مِنَ الْقَصْرِ عَمُودًا مِنَ الرُّخامِ مُقْتَحِمًا بِهِ ذلِكَ الزِّحامَ لِيَدْفَعَ كَيْدَهُمْ، وَيُفَرِّقَ شَمْلَهُمْ.

ثُمَّ قَفَزَ إلى سَقْفِ الْقَصْرِ وَلَوَّحَ بِهِ صائِحًا مُهَدِّدًا، مُنْذِرًا مُتَوَعِّدًا: «عاشَ الأَمِيرُ «راما» سَيِّدُ الشُّجْعانِ، وهازِمُ الْفُرْسانِ، وَخَسِئْتُمْ يا أَنْذالَ الْعَفارِيتِ وحُثالَةَ الْجانِّ، وَحانَ مَصْرَعُ شَيْطانِكُمُ الْجَبانِ، عَلَى يَدَيْ «راما» و«هانومان»».

ثُمَّ قفزَ — في الْهَواءِ — قَفْرَةً عاجِلَةً، بِسُرْعَةٍ هائِلَةٍ، وَهُوَ على ثِقَةٍ مِنْ أَنَّهُ بالِغٌ بقَفْزَتِهِ النَّجَاةَ، ومُفْلِتٌ بِوَثْبَتِه مِنْ كَيْدِ عِداه.

ولَقَدْ صَحَّ ظَنُّهُ وتَقْدِيرُهُ، وصَدَقَ رَأْيُهُ وتَدْبيرُهُ، لَوْ أَخْطَأَهُ السَّهْمُ الَّذِي صَوَّبَهُ إِلَيْهِ عِفْرِيتٌ خَبِيثٌ مِنْ أَعْدائِهِ؛ فَهَوَى بِهِ مِنْ سَماء عَلْيائِهِ، فاجْتَمَعَ حَوْلَهُ عَفارِيتُ الْجزِيرَةِ ناقِمينَ، وصاحُوا بهِ مُتَوَعِّدِينَ شامِتينَ.

(٢٣) عِقَابُ الثَّائِرِ

وكانَ جُرْحُهُ خَفِيفًا، ولكِنَّهُ — عَلَى ذلِكَ — عَوَّقَهُ عَنْ بُلُوغِ أَمانِيهِ، وأَسْلَمهُ إلى أَعْدائهِ ومُحاربيهِ. فَأَوْثَقُوهُ بالْحِبالِ، وقَيَّدُوهُ فِي الأَغْلالِ، ثُمَّ جاءُوا به إلى شَيْطانِهِمْ؛ لِيَحْكُمَ فِيهِ بِما يَراهُ، وَفْقَ نَزَعاتِهِ وهَواهُ، فَأَمَرَهُمُ الشَّيْطانُ أَنْ يُحْرِقُوا بالنَّارِ جِسْمَ الْعَدُوِّ الْهاجِمِ — جُزْءًا بَعْدَ جُزْءٍ — حتَّى لا يَمُوتَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَلْقَى ما بِهِ مِنْ نِقْمَةٍ وتَنْكِيلٍ، وتَعْذِيبٍ طَوِيلٍ. فَأَسْرَعُوا إلى لَفائِفَ كَبِيرَةٍ مِنَ الْقُطْنِ فَأَحْضَرُوها، بَعْدَ أَنْ غَمَسُوها فِي الزَّيْتِ وَأَدارُوها عَلَى ذَيْلِ الزَّعِيمِ وَرَبَطُوها. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ الشَّيْطان فَأَشْعَلَ فِي ذَيْلِهِ النَّارَ.

فَلَمَّا شَعَرَ بِحَرارَتِها، وَأَحَسَّ وَطْأَةَ شِدَّتِها، أَيْقَنَ أَنهَّا مُنْتَقِلَة مِنْ ذَيْلِهِ إلى جِسْمِهِ، وَعَرَفَ أَنهُ — لا مَحَالَةَ — هالكٌ فَنَدِمَ عَلَى تَعَجُّلِهِ فِي الإِقْدامِ قَبْلَ أَنْ يُطِيلَ أَناتَهُ (حِلْمَهُ وصَبْرَهُ) ويَتَعَرَّفَ طَرِيقَهُ وغايَتَهُ، وَأَيْقَنَ أَنَّ تَسَرُّعَهُ قَدْ أَفْقَدَهُ فُرْصَةً لِتَخْلِيصِ الأَمِيرَةِ الْمَنْفِيَّةِ.

(٢٤) انْتِقَام الثَّائِر

على أَنْ الْكَرِيمَ الصَّادِقَ الْوَفَاءِ، إِذَا فَقَدَ أَنْصَارَهِ فِي الْأَرْضِ لَمْ يَعْدَمْ نَصِيرًا لَهُ مِنْ عالَمِ السَّماء، فَقَدِ اجْتَمَعَتِ السُّحُبُ وأَنْزَلَتْ ماءَها فَأَخْمَدَتِ اللَّهَبَ، ويَسَّرَتْ لَهُ سُبُلَ الْهَرَبِ، بَعْدَ أَنْ أَحْرَقَتِ النَّارُ حِبالَهُ، وفَكَّتْ عَنْهُ أَغْلَالَهُ.



ثُمَّ كَفَّ الْمَطَرُ فَجْأَةً بَعْدَ أَنْ هَمَى، وَبَرَدَ جِسْمُهُ شَيْئًا، واطْمأَنَّتْ بَعْدَ ذلِكَ نَفْسُهُ، ولَمْ يَبْقَ مُشْتَعِلًا — مِنْ ذَيْلِهِ — إِلَّا رَأْسُهُ.

فَأَسْرَعَ يَعْدُو جَرِيئًا مِقدامًا، مُحَرِّكًا ذَنَبَهُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً وخَلْفًا وأَمامًا؛ لِيُشْعِلَ النَّارَ في كُلِّ ما يَلْقاهُ، وَيُدَمِّرَ الْقَصْرَ بِما حَواهُ.

واسْتَوْلَتْ عَلَى العَفارِتَةِ، حَيْرَةٌ مُباغِتَةٌ، وتَمَلَّكَتْهُمْ هَبَّةٌ مِنَ الذُّعْرِ عاصِفَةٌ، ورَهْبَةٌ مِنَ الرُّعْبِ جارِفَةٌ، بَعْدَ أَنْ مَرَّتْ بِهِمْ تِلْكَ الْأَحْداثُ الْقاصِفَةُ، في مِثْلِ لَمْحَةِ الْبَرْقِ الْخاطِفَةِ.

ورَأَوُا النَّارَ تَشْتَعِلُ في ذلِكَ الْقَصْرِ الكَبِيرِ، وَما جاوَرَهُ مِنَ الدُّوَرِ، فَتَمَلَّكَهُمُ الذُّعْرُ وَالْهَلَعُ، وشَمِلَهُمُ الرُّعْبُ والْفَزَعُ، وعَاقَهُمْ عَنِ اللِّحاقِ بِعَدُوِّهِمْ ما غَمَرَهُمْ مِنَ الْحَرَجِ والضّيقِ، وما بَهَرَ أَعْيُنَهُمْ مِنْ مَنْظَرِ الْحَرِيقِ.

(٢٥) عَلَى الشَّاطِئ

وأَسْرَعَ «هانومانُ» إِلى شَاطِئِ الْبَحْرِ فَأَطْفَأَ ذَيْلَهُ الْمُشْتَعِلَ في أَمْواجِه الصَّاخِبَةِ، مُعْتَزِمًا أَنْ يَبْلُغَ الشَّاطِئَ الآخَرَ بِقَفْزَةٍ واثِبَةٍ. ثُمَّ رَدَّهُ عَنْ عَزْمِهِ خَوْفُهُ عَلى الأَمِيرةِ أَن تَبْلُغَ النَّارُ مَأْواها، وَرَغْبَتُهُ في أَنْ يُجَنِّبَها خَطَرَها وأَذَاها، فَأَسْرَعَ إِلى سُرَادِقِها فرَآها بِعِيدِةً عَنْ مَنْطَقَةِ اللَّهَبِ، آمِنَةً مِنَ الضُّرِّ والْعَطَبِ. فَعادَ يُؤَسِّيها (يُصَبِّرُها ويُعَزِّيها) مُتَوَدِّدًا إِلَيْها، ثُمَّ وَدَّعَها بَعْدَ أَنِ اطْمَأَنَّ عَلَيْها، وَرَجَعَ عَلَى الْفَوْرِ، إِلى الْبَحْرِ. وما لَبِثَ أَنْ كانَ عَلى الشَّاطِئِ الآخَرِ، فِي لَمْحَةِ خاطِرٍ، بِوَثْبَةٍ عاجِلَةٍ، وقَفْزَةٍ طائِلَةٍ؛ فَبَلَغَهُ سالِمًا، وَرَجَعَ أَدْراجَهُ (عادَ في الطَّرِيقِ الَّذِي جاءَ مِنْهُ) غَانِمًا، قاصِدًا إِلى صَفِيهِ مُيَمِّمًا، لِيُحَدِّثَهُ بِما لَقِيَهُ — في طَرِيقِهِ — مِنْ فَوادِحِ الأَخْطارِ، وما أَعَدَّهُ لَهُ مِنْ بَدَائِعِ الأَنْباءِ والأَخْبَارِ، وَعَجائِب الأَحادِيثِ والأَسْمارِ.

الفصل الرابع

آخِرَة الشَّيْطَان

(١) جَيْشُ النَّجْدَةِ



وَعادَ «هانومانُ» إلى مَمْلَكَةِ «كِشْكِنْدَةَ» بِمِثْلِ سُرْعَةِ الرِّيح. وَقَدْ فَرِحَ «راما» بِعَوْدَتِهِ فَرَحًا لا يُوصَفُ، وعادَتِ الطُّمَأْنِينَةُ إلى قَلْبِهِ، بَعْدَ أَنْ عَلِمَ أَنَّ «سِيتا» لا تَزالُ سالِمَةً مِنَ الْأَذَى. وطلَبَ إلى صَدِيقِهِ الْوَفِيِّ «هانومانَ» أَنْ يَصْحَبَهُ إلى الْجَزِيرةِ النَّائِيَةِ لتَخْلِيصها مِنَ الأَسْرِ.

فقالَ لَهُ: «ما جِئْتُ إلّا لِهذا، وإنْ كُنْتُ عَلى يَقِينٍ أَنَّنا سَنَلْقى — في سَبِيلِ تَخْلِيصِها — أَهْوالًا وأَخْطارًا، لا أَعْلَمُ كَيْفَ نَنْجُو مِنْها. وَما أَدْرِي: كَيْفَ يَسْتَطِيعُ جَيْشُنا أَنْ يَجْتَازَ الْبَحْرَ إلى جَزِيرَةِ «لَنْكا»؟ ولكِنْ لا مَعْنَى لِلْيَأْسِ عَلى كلِّ حالٍ.»

فَقالَ لهُ «راما»: «لا سبيلَ إلى دَرْكِ الْعَظائِمِ ونَيْلِ الْغاياتِ، إلَّا بالتَّعَرُّضِ لِلْمَهالِكِ واقْتِحامِ الْعَقَباتِ. ومَتَى صَحَّتِ الْعَزِيمَةُ وحَالَفَها التَّوْفِيقُ، ذَلَّلا — في طَرِيقِهِما — الْمُحالَ، وتَحَقَّقَ بِهِما أَبْعَدُ الآمالِ.»

وكانَ الْمَلِكُ «سُجْرِيڤا» شَدِيدَ الرَّغْبَةِ في الْقَضاءِ عَلَى أَعْدائِهِ الْقُدَماءِ سُكَّانِ جَزِيرَةِ «لَنْكا»، فَأَعدَّ لَهُمْ جَيْشًا ضَخْمًا — مِنْ قَبائِلِ «الْڤانارِ» — مُؤَلَّفًا مِنْ عِدَّةِ مَلايِينَ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوا «راما» طاعَةً عَمْياءَ.

وَسارَ الْجَيْشُ — وفي مُقَدِّمَتِهِ «راما»، وَأَخُوهُ «لَكْشَمانُ»، وَصَفِيُّهُ الْحَمِيمُ «هانومانُ» — حتى بَلَغُوا الشَّاطِئَ الْجَنُوبِيَّ، فَلَمَّا رَأَوْا سَعَةَ الْبَحْرِ، وهياجَ أَمْواجِهِ الصَّاخِبَةِ، أَيْقَنَ «راما» أَنَّ نَجَاةَ «سِيتا» أَبْعَدُ مِنَ النَّجْمِ، وَخَشِيَ أَنْ تَكُونَ مُحاولَتُهُ لِإنْقاذِها أَشْبَهَ بِمُحاولَةِ «سَمْپاتِي»: ذلِكَ النَّسْرِ الَّذِي أَرادَ أَنْ يُحَلِّقَ فَوْقَ الشَّمْسِ، فَتَقَطَّعَتْ — دُونَ غايَتِهِ — الْأَسْبابُ، وَعادَ إلى عُشِّهِ وَهُوَ أَخيبُ الْخُيَّابِ.

(٢) مؤْتَمَرُ الْعَفارِتَة

ولكِنَّ الْقَلْبَ إِذا عَمَرَه الإيمانُ، ومَلَأَهُ الْيَقِينُ والاطْمِئْنانُ، حالَفَتْهُ أَسْبابٌ مُوَفَّقَةٌ، وَفَتَحَ لَهُ الإِخْلاصُ أَبْوابًا مُغْلَقَةً، ورُبَّما جاءَهُ النَّجاحُ بلا كَدٍّ وَلا تَعَبٍ، مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ. وهكَذَا كانَ، وإِلَيْكَ الْبَيانَ: لَقَدِ اسْتَوْلَى الذُّعْرُ والْفَزَعُ على أَهْلِ جَزِيرَةِ «لَنْكا»، بعدَ ما لَقُوهُ — علَى يَدِ عَدُوِّهِمْ «هانومانَ» — مِنْ عَذابِ الْحَرِيقِ والتَّخْرِيبِ. وفَزَّعَهُمْ أَنْ يَرَوْا أَنَّ واحِدًا بِمُفْرَدِهِ قَدِ اقْتَحَمَ عَلَيْهِمْ مَدِينَتَهُمُ الْحَصِينَةَ، وأَنْزَلَ بِهِمْ كلَّ هذهِ النَّكَباتِ، فَكَيْفَ إذا هَبَطُوا إِلَيْهِمْ في جُمُوعِهِمُ الَّتي لا تُحْصَى!

وَأَيْقَنَ مَلِكُ الشَّياطِينِ أَنَّ «راما» و«هانومان» — بَعْدَ أَنْ تَعاونا عَلَى مُحارَبتِهِ، واجْتَمَعَ أَمْرُهُما علَى تَخْلِيصِ أَسِيرَتِهِ — سَيَبْلُغانِ ما أَراداهُ، ولَنْ يَعُوقَهُما شَيْءٌ عَنْ بُلُوغِ ما طَلَباهُ.

فَعَقَدَ مُؤْتَمَرًا مِنْ مَجْلِسِ الشُّورَى، وكِبارِ الْقَادَةِ، وأَعْلامِ الْعَفارِيتِ وزُعَماءِ الشَّيَاطِينِ؛ لِيُعِدُّوا خُطَّةَ الدِّفاعِ عنِ الْمدينةِ، ويَحْمُوها شَرَّ أَعْدائِهِمُ الْمُغِيرِينَ، فَتَشَعَّبَتِ الْآراءُ، وتَفَرَّقَت الْأَهْواءُ، ورَأَى بَعْضُ رُؤَساءِ الْوُفودِ أَنْ يَبْدَأَ الْمَلِكُ بِقَتْلِ «سِيتا»؛ لأنَّها جَلَبَتْ عَلَيْهِمْ كلَّ هذهِ الْمَصائِبِ، ثُمَّ يُعِدَّ جَيْشَهُ العَظِيمَ لِيَلْقَى بِهِ الْعَدُوَّ الْمُحارِبَ. واقْتَرَحَ آخَرُونَ أَنْ يُرْجِئَ (يُؤَخِّرَ) قَتْلَها حتَّى يَتِمَّ لهُ الظَّفَرُ. وأَشارَ غَيْرُهُمْ بِما يُخالِفُ ذلِكَ مِنْ وُجُوهِ النَّظَرِ.

(٣) أَمِيرُ التَّوابِعِ

وطالَ بَيْنَهُمُ الْأَخْذُ والرَّدُّ، حَتى تَجاوَزُوا الْحَدَّ. ثُمَّ وَقَف «قبهيشانُ» أَميرُ العفارِيتِ — وهوَ الشَّقِيقُ الأصْغَرُ لِمَلِكِ الشَّياطِينِ — فقالَ: «لَقدْ تَعِبْنا مِنَ الإِساءَةِ إلى الْوادِعِينَ، والكَيْدِ لِلْآمِنِينَ. وقد جَرَّ عَلَيْنا حُكْمُ «رَڤانا» كَثِيرًا مِنَ الأحْداثِ والْمَصائِبِ، علَى غَيرِ طائِلٍ. والرَّأْيُ عِنْدي أَنْ نُطْلِقَ سَراحَ «سِيتا» ونُعِيدَها إلَى زَوْجِها، فَنُرِيحَ مِنْ قَبائِلِ «الْڤانارِ» ونَسْتَرِيحَ، ونَحْقِنَ بَيْنَنا الدِّماءَ، ونُؤَمِّنَ بِلادَنا غاراتِ الْأَعْداءِ.»

فَغَضِبَ «رَڤانا» مِنِ اقْتِراحِ أخيهِ أَشَدَّ الْغَضَبِ، واشْتَدَّ النِّزاعُ بَيْنَهُما، فَلَمَّا ظَهَرَ لِلْأَمِيرِ «قبهيشانُ» إِصْرارُ أَخِيهِ، وعِنَادُهُ وتَمادِيهِ، تَرَكَهُ ثائِرًا، واجْتازَ الْبَحْرَ طائِرًا، حَتَّى بَلَغَ جَيْشَ أَعْدائِهِ، فَقصَّ عَليهِمْ ما دارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ مِنَ الْمُجَادَلَةِ، وعاهَدَهُمْ عَلَى أَنْ يُعاوِنَهُمْ فِي تَحْقِيقِ طِلْبَتِهِمُ الْعادِلَةِ.

(٤) الْقَنْطَرَةُ



وقدْ حَسِبُوهُ — أَوَّلَ الأَمْرِ — جاسُوسًا أَوْفَدَهُ الْأَعْداءُ إِلَيْهِمْ، لِيَكُونَ عَيْنًا عَليهِمْ. ولكِنَّهُمْ لم يَلْبَثُوا أَنْ تَبَيَّنُوا صِدْقَه وإِخْلاصَهُ لهُمْ حِينَ أشارَ عَليهِمْ بِبناءِ قَنْطَرَةٍ يَعْبُرُونَ عَليْها الْبَحْرَ. وكانُوا يَعُدُّونَ ذلكَ مِن الْمُسْتَحِيلاتِ؛ فقالَ لَهُمْ: «يَجِبُ أَنْ تَتَناصَرُوا عَلَى جَمْعِ ما

يَسَعُكُمْ مِنْ جُذُوعِ الشَّجَرِ وَقِطَعِ الصَّخْرِ، ثمَّ تُلْقُوا بِها فِي الْبَحْرِ، وجَيْشُكُمْ مَلايِينُ مِنَ الْجُنُودِ، ولَنْ تَقِفَ عَقَبَةٌ في سَبِيلِ ما يُرِيدُ.»

وقَدْ رَحَّبُوا بِهذِهِ الْفِكْرَةِ — عَلَى صُعُوبَتِها — وَراحُوا يَقْتَلِعُونَ الْجُذُوعَ وَيَكْسِرُونَ الصُّخُورَ، ويَقْذِفُونَ بِها في الْبَحْرِ، حَتَّى أَتَمُّوا الْقَنْطَرَةَ بَعْدَ خَمْسَةِ أَيَّامٍ.

(٥) الْمَعْرَكَةُ الْحاسِمَةُ

ثُمَّ عَبَرُوا الْجِسْرَ — في أَثْنَاءِ اللَّيْلِ — حتَّى بَلغُوا شاطِئَ الْجَزِيرَةِ آمِنِينَ؛ فَأَعَدُّوا جُموْعَهُمْ وَنَصَبُوا خِيامَهُمْ عَلَى مسافَةٍ بَعِيدةٍ مِنَ الْمَدِينَةِ وَتَأَهَّبُوا لِمُناجَزَةِ أَعْدائِهِمْ.

ورَأَى الشَّيْطانُ — وَهُوَ فِي ذِرْوَةِ الْبُرْجِ الْعالِي مِن قَصْرِهِ — جُمُوعَ الْعَدُوِّ تَقْتَرِبُ؛ فَامْتَلَأَ قَلْبُهُ رُعْبًا وَفَزْعًا، وَأَسْرَعَ إلى أَتْباعِهِ فأَيْقَظَهُمْ مِن نَوْمِهِمْ.

وَنُفِخَتْ أَبْواقُ الْحَرْبِ، وَتَأَهَّبَ جَيْشُ «رَقانا» لِمُلاقَاةِ الْمُغِيرِينَ، وَخَرَجَ الشَّيْطَانُ مِن الْمَدِينَةِ على رَأْسِ جَيْشِهِ الْكبِيرِ.

واشْتَبَكَ الْجَيْشانِ فِي الْحَرْبِ. وَكانَتْ جُنُودُ «راما» تَحْمِلُ مَعَها الْأَحْجارَ، وَجُذُوعَ الأَشْجارِ، فَتَقْذِفُ بِها أَعْداءَها؛ فَقَتَلَتْ مِنْهُمْ أُلُوفًا لا تُحْصَى، وَقَذَفَهُمُ الْعفارِيتُ والْمَرَدَةُ بِسِهامِهِمْ، فَقَتَلُوا وَجَرَحُوا مِنْهُمْ عَدَدًا كَبِيرًا.

وَكانَ «لَكْشمانُ» قَدْ أُصِيبَ فِي تلكَ الْمَعْرَكَةِ بِجُرْحٍ خَطِيرٍ، وَلكِنَّ «هانومانَ» أَسْرَعَ إلى شِفائِهِ مِنهُ بِما وَضَعهُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْشابِ الْحاسِمَةِ الشَّافِيَةِ؛ فكانَتْ بَلْسَمًا لِجِراحِه الْبَلِيغَةِ الدَّامِيَةِ. ولم تُشْرِقْ شَمْسُ الْيَوْمِ التَّالِي حتَّى اسْتَرَدَّ قُوَّتَهُ، وَعادَ إلَى الْمَعْرَكَةِ ثَانِيَةً إلى جانِبِ أخيهِ وَأَعْوانِهِ مِنْ رُؤَساءِ «الْڤانار».

وَدارَتْ رَحَى الْحَرْبِ الطَّاحِنَةُ أَيَّامًا وَلَيالِيَ طِوالًا. ورَجَحَتْ كِفَّةُ الشَّياطِينِ عَلَى أَعْدائِهِمْ — بادِئَ الأَمْرِ — وَلكِنَّ بَراعَةَ النَّابِلِ الْعَظِيمِ «راما» في تَسْدِيدِ نِبالِه الْمَسْحُورَةِ إلى قَادَةِ أَعْدائِهِ ورُؤَساءِ جَيْشِهِمْ قَدْ رَجَّحَتْ كِفَّتَهُ، وَأَظْهَرَتْ فَوْقَهُ (فَضْلَهُ وَرُجْحانَهُ) عَلى أَعْدائِهِ، فَقَدْ ظَلَّ يَنْبُلُهُمْ (يَرْمِيهِمْ بالنَّبْلِ) حتى شَتَّتَ شَمْلَهُمْ (فَرَّقَ جَمْعَهُمْ)، فَلَمْ يَبْقَ أَمامَهُمْ غَيْرُ الْفِرارِ (الْهَرَبِ) وَالاسْتِسْلام.

(٦) أَمِيرُ الزَّوابِعِ

ولَمَّا أَبْصَرَ الشَّيْطانُ «رَڤانا» بَوادِرَ الْخِذْلانِ، وَأَيْقَنَ بالْهَزِيمةِ وَالْخُسْرانِ، لَمْ يَرَ بُدًّا من أن يَرْمِيَ — عن قَوْسِهِ — آخِرَ سَهْمٍ في كِنانَتِهِ (جُعْبَةِ سِهَامِه)، ويُوقِظَ أخاهُ أَميرَ الزَّوابعِ؛ لِيَكْفُلَ لهُ النَّصْرَ عَلَى أعْدائِهِ.



وكان هذا الأميرُ الضَّخْمُ يُسَمَّى «كَمْبهَا كَرْنا»، وَيُلَقَّبُ بالْعِمْلاقِ الأَكْبَرِ، وَيُكَنَّى «أبا زَوْبَعَةَ». وَهُوَ أَقْوَى شَياطِينِ عَصْرِهِ قَاطِبَةً، وأَضْخَمُهُمْ جُثَّةً، وَأَطْوَلُهُمْ قامَةً، وأَقْساهُمْ قَلْبًا.

وكانَ «رَڤانا» يُبْغِضُهُ وَلا يُطِيقُ أَنْ يَراهُ، فَهُوَ — إذا مَشَى — ضاقَتْ بهِ شَوارِعُ الْمَدِينَةِ الرَّحْبَةُ، وزُلْزِلَتْ — تَحْتَ قَدَمَيْهِ — الأَرْضُ الصُّلْبَةُ. وإِذا أَكلَ لَمْ يَكْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الطَّعامِ، وظَلَّ يَأْكُلُ بِلا انْقِطاعٍ، دُونَ أَنْ يَشْبَعَ، فَلا عَجَبَ إِذا أَرْغَمُوهُ عَلَى النَّوْمِ طَوالِ

أَيَّامِ السَّنَةِ، ولَمْ يَسْمَحُوا لهُ بالْيَقظَةِ إلَّا مَرَّتَيْنِ اثْنَتَيْنِ في كُلِّ عامٍ؛ لِيتَنَسَّمَ — في خِلالِ ساعِهِما — قَلِيلًا مِنْ حُرِّيَّتِهِ، ثمَّ يَعُودُ إلى نَوْمَتِهِ.

ولَمْ يَكُنْ هذا الْيَوْمُ مَوْعِدَ إيقاظِهِ مِنْ سُباتِه (نَوْمِهِ) الْعَمِيقِ، ولكِنَّ «رَقانا» لَجَأَ إلى ذلِكَ مُضْطَرًّا لِما أَلَمَّ بهِ مِنَ الْحَرَجِ والضيِّقِ.

(٧) «أَبُو زَوْبَعَةَ»

ولَمْ يَكُنْ إيقاظُ الْمارِدِ الْهائِلِ هَيِّنًا مَيْسُورًا؛ فَقَدِ اجْتَمَعَ جُمْهُورُ العَفارتَةِ لِهذِهِ الْغابَةِ، وظَلُّوا يُصَفِّقُونَ بِأَيْدِيهِمْ، ويُدَبْدِبُونَ بأَرْجُلِهِمْ، ويَصِيحُونَ بِأَعْلَى أَصْواتِهم، ويَضْرِبُونَ دُفُوفَهُمْ، ويَنْفُخُونَ — عَلَى أُذُنَيْهِ — في أَبْواقِهِمْ، دُونَ جَدْوَى، فَلَمْ يَرَوْا بُدًّا مِنَ الالْتِجاءِ إلى وَسِيلَةٍ أُخْرَى لِإيقاظِهِ مِنَ الْكَرَى (النَّوْمِ)؛ فأَحْضَرُوا طائِفَةً مِنَ الْأَفْيالِ والْجِمالِ، ثمَّ ضَرَبُوها بِعِصِيِّهِمْ وسِياطِهِمْ، فَصاحَتْ مُزَمْجِرَةً مِنَ الأَلَمِ، فَلَمْ يُوقِظْهُ صِياحُها الْعالِي، ولَمْ يُفِقْ مِنْ كَراهُ (نَوْمِهِ)، إلَّا بَعْدَ أَنْ مَشَتْ تِلْكَ الْجِمالُ والْفِيلَةُ عَلَى جَسَدِهِ، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ قَلِيلًا، ثُمَّ قالَ لَهُمْ في صَوْتِ مَنْ يَتَهَيَّأُ لِطَرْدِ النَّوْمِ عَنْ جَفْنَيْهِ: «لِماذا تُوقِظُونني قَبْلَ أَنْ يَحِينَ الْمَوْعِدُ؟»

فَقَصُّوا عَلَيْهِ — موجِزينَ — سَبَبَ إزْعاجِهِمْ إيَّاهُ، وحَرَجَ الْمَأْزِقِ الَّذِي يَتَعَرَّضُونَ لهُ، إذا لَمْ يَتَوَلَّ قِيادَتَهُمْ، ويَكْفُلْ لَهُمُ النَّصْرَ عَلَى أَعْدائِهِمُ الْأَلِدَّاءِ، فَقالَ لَهُمْ: «إنَّ أَخِي قَدْ أَخْطأَ — بِلا شَكٍّ — في إغْضابِ «راما» واسْتِثارَةِ قَبائِلِ «الْقانارِ»، ولَنْ أُناصِرَهُ في هذِهِ الحَرْبِ الْخاسِرَةِ.»

(٨) سَهْمُ الْمَوْتِ

ولكِنَّهُمْ لَجَأُوا إلى الْحِيلَةِ، وظَلُّوا يَسْتَعْطِفُونَهُ ويَضْرَعُونَ إلَيْهِ أَنْ يُعِينَهُمْ عَلَى أَعْدائِهِم. وأَحْضَرُوا لَهُ أَكْداسًا عَظِيمةً — مِنْ طَيِّباتِ اللَّحْمِ — وخَوابِيَ (آنِيَةً كَبيرَةً) مَمْلُوءَةً بِلَذائِذِ الأَشْرِبَةِ الْمُخْتَلِفَةِ، حَتَّى انْتَعَشَ، وتَطَلَّقَتْ أساريرُهُ، وهَشَّتْ نَفْسُهُ إلَى الْقِتالِ، فَنَهَضَ لِنُصْرَةِ أَخِيهِ.

وما رَأَتْ قَبَائِلُ «الْقِانارِ» «أبا زَوْبَعَةَ» حَتَّى هالَهُمْ ما رَأَوْهُ مِنْ ذلِكَ الْمارِدِ الضَّخْمِ، واسْتَوْلَى عَلَيْهِم الرُّعْبُ، ودَبَّ فِيهِمْ دَبِيبُ الْهَزِيمَةِ. ولكِنَّ «راما» — وهُوَ أَبْرَعُ نَبَّالٍ في عَصْرِهِ — أَقْبَلَ عَلَيْهِ بِقَلْبٍ لا يَعْرِفُ الْخَوْفُ إِلَيْهِ سَبِيلًا، ورَمَى — عَن قَوْسِهِ — سَهْمًا مَسْحُورًا مِنْ تِلْكَ السِّهامِ الَّتي أَهْداها إِلَيْه النَّاسِكُ حِينَ لَقِيَهُ في غابَةِ الشَّياطِينِ، فَنَفَذَ السَّهْمُ إلى قَلْبِ الْمارِدِ الْجَبَّارِ، فَأَصْماهُ (أَهْلَكَهُ وأَرْداهُ)، فَهَوَى بِجُثَّتِهِ — إلى الأَرْضِ — على جُمْهُورٍ كَبيرٍ مِنَ الْعَفارِيتِ الْمُحِيطِينَ بهِ، فَسَحَقَهُمْ سَحْقًا.

وَأَيْقَنَ — حِينئِذٍ — أَبناءُ «الْقِانارِ» أَنَّ النَّصْرَ قَدْ حالَفْهُمْ بَعْدَ مَوْتِ «أَبي زَوْبَعَةَ» ذلِكَ الْمارِدِ الْجَبَّارِ.

(٩) مَصْرَعُ «رَقانا»

وَلَمَّا أَبْصَرَ مَلِكُ الشَّياطِينِ مَصْرَعَ أَخِيهِ الْأَكْبَرِ امْتَلَأَتْ نَفْسُهُ غَيْظًا وحِقْدًا على «راما»؛ فَأَسْرَعَ إِلَيْهِ مُحاوِلًا قَتْلَهُ، كَلَّفَهُ ذلِكَ ما كَلَّفَهُ. ورآهُ «راما» مُقْبِلًا عَلَيْهِ، فَأَسْرَعَ إلى لِقائِهِ، مُسْتَهِينًا بالْمَوْتِ.

وكان كِلاهُما بارِعًا في الرِّمايَةِ، فَتَرَامَيا زَمَنًا، وأَمْطَرَ كلُّ واحِدٍ مِنْهُمَا صاحِبَهُ وابِلًا مِنَ النِّبالِ، دُونَ أَنْ يُصِيبَ مِنهُ مَقْتَلًا، حَتَّى أَحَسَّ «راما» أَنَّهُ تَعِبَ وخارَتْ قُواهُ، وكادَ الْإِعْياءُ والْجُهْدُ يُمْكِنانِ خَصْمَهُ مِنْهُ، ويُظْفِرانِهِ بهِ، فَجَمعَ «راما» قُوَّتَهُ، وَرَمَى — عن قَوْسِهِ — سَهْمًا مَسْحُورًا سَدَّدَهُ إلى قَلْبِ عَدُوِّهِ، فَأَرْداهُ.

وانخَذَلَ جَيْشُ الْعَفارِيتِ — بَعْدَ مَصْرَعِ قَائِدِهِ — فَاسْتَسْلَمُوا صاغِرِينَ.

(١٠) فَرَحُ الطَّبِيعَةِ

وسادَ الْكَوْنَ — بَعْدَ مَوْتِ ذلِكَ الشِّرِّيرِ — فَرَحٌ عَظيمٌ، حتَّى خُيِّلَ لِلنَّاسِ كَأَنَّ الطَّبِيعَةِ كُلَّها قَدِ ابْتَهَجَتْ لِمَصْرَعِ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ، فَغَنَّتِ الْبَلابِلُ والْكِرْوانُ عَلَى أَغْصانِها مَحْبُورَةً (مَسْرُورَةً)، وانْتَثَرَتِ الأَزْهارُ والرَّياحِينُ، فَمَلَأَتِ الشَّوارِعَ والْمَيادِينَ. وسَمِعَ «راما» أَناشِيدَ رَائِعَةَ الْمَعْنَى، بارِعَةَ اللَّحْنِ، تُمَجِّدُ صَنِيعَهُ، وتُشِيدُ بِذِكْراهُ.

(١١) على عَرْشِ «لَنْكا»

ورَأَى «راما» أَنْ يُكافِئَ صاحِبَهُ الْعِفْرِيتَ النَّبِيلَ «ڤبهيشانَ» أَمِيرُ التَّوابعِ — أَخا الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ «رَڤانا» — فَأَسْرَعَ بِتَتْوِيجِهِ على مُلْكِ أَخِيهِ الْقَتِيلِ، مُكافَأَةً لهُ على ما بَذَلَهُ مِنْ صَنِيعٍ جَلِيلٍ.

(١٢) اجْتِماعُ الشَّمْلِ

وكانَتْ «سِيتا» جالِسَةً في سُرادِقِها، وَحِيدَةً على عادَتِها، ولَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ شَيْئًا مِمَّا حَدَثَ، فَلَمَّا سَمِعَتْ وَقْعَ أَقْدامٍ قَرِيبَةٍ مِنْها انْزَعَجَتْ، وحَسِبَتْ «رَڤانا» قادِمًا عَلَيْها، كما عَوَّدَها كُلَّ يَوْمٍ. ولكِنَّها لم تُبْصِرْ زَوْجَها «راما» أمامَها حتَّى أَسْرَعَتْ إِلَيْهِ. وقد كادَ يُذْهِلُها السُّرُورُ الَّذِي فَاجَأَها — دُونَ أَنْ تَتَوَقَّعَهُ — فَتَحَدَّرَتْ مِنْ عَيْنَيْها دُمُوعُ الْفَرَحِ.

واجْتَمعَ الشَّمْلُ الشَّتِيتُ بَعْدَ أَنْ دَبَّ الْيَأْسُ إلى قَلْبَيْهِما. وزادَ في أَفْرَاحِهما أَنَّ هذا الْيَوْمَ — الَّذِي كُتِبَ لَهُما أَنْ يَلْتَقِيا فِيهِ — قد أَعْقَبَ آخِرَ يَوْمٍ يَنْتَهِي بِهِ الْعامُ الرَّابِعَ عَشَرَ. وقَدِ افْتُتِحَتْ بِهِ السَّنَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ، أَعْنِي أَنَّهُ كانَ الْيَوْمَ الْمُقَرَّرَ لِعَوْدَةِ الْمَنْفِيِّينَ إلى مَدِينَةِ «أَيُدْيا» حاضِرَةِ وَطَنِها الْمَحْبُوبِ.

(١٣) أَفْراحُ الْوَطَنِ

وَلَمَّا عَرَفَ «هانومانُ» أَنَّ مُدَّةَ النَّفْيِ قَدِ انْتَهَتْ، أَصَرَّ عَلَى الإِسْراعِ إلى «أَيُدْيا»؛ لِيُخْبِرَ الأَمِيرَ «بَهاراتَ» أَنَّ أَخاهُ «راما» وصاحِبَتَهُ «سِيتا» عائِدانِ إلى مَدِينَتِهِما.

ورَكِبَ «هانومانُ» عِفْرِيتًا مِنْ عَفارِيتِ «لَنْكا»، فَحَملهُ إلى «أَيُدْيا»، فَبَلَغَها بَعْدَ وَقْتٍ قَليلٍ.

أَمَّا «ڤبهيشانُ» فَقدْ أَسْرَعَ — بَعْدَ أَنِ اسْتَتَبَّ لهُ الأَمْرُ — فأَحْضَرَ مَرْكَبَةً عَجِيبَةً لِيَمْتَطِيَها الأُمَراءُ، وهِيَ مُكَلَّلَةٌ بالأَزْهارِ، تَجُرُّها بَجَعاتٌ ظَرِيفاتٌ، فامْتَطاها الأُمَراءُ، بَعْدَ أَن وَدَّعُوا صاحِبَهُمْ «ڤبهيشانَ» وأَوْصَوْهُ بِإِقامَةِ الْعَدْلِ بَيْنَ عَفارِيتِ الْمَدِينَةِ.

وقَدْ ساسَهُمْ بِحِكْمَةٍ، بَعْدَ أَنْ قَضَى على شَياطِينِهِمْ وزَوابِعِهِمْ، وقَطَعَ دابِرَهُمْ، وكَفَّ شَرَّهم وأذاهُم عَنِ النَّاسِ.

(١٤) الْعَوْدَةُ

وطارَتِ الْبَجَعاتُ فِي الْهَواءِ، حَتَّى بَلَغَتْ — بَعْدَ ساعاتٍ قَلائِلَ — مَدِينَةِ «أَيُدْيا» حَيْثُ أَبْصَرَ الْأُمَراءُ سُكَّانَها يَمْرَحُونَ مُبْتَهِجِينَ بِقُرْبِ عَوْدَةِ مَلِيكِهِمُ الْمَحْبُوبِ.

وَابْتَهَجَ «بَهاراتَ» بِمَقْدَمِ أَخِيهِ الْحَبِيبِ إِلَى نَفْسِهِ، وتَوَّجَهُ مَلِكًا عَلَى شَعْبِهِ، الْمُشْتاقِ إِلَى لِقائِهِ. وَأَصْبَحَ «راما» و«سِيتا» — مُنْذُ ذلِكَ الْيَوْمِ — مَلِكَيْنِ. وَقَدْ أَبْلَغَهما الصَّبْرُ ما أَراداهُ، وَحَقَّقَ لَهُما الْوَفاءُ ما تَمَنَّياهُ. وَلَمْ يَبْقَ هُناكَ حاقِدٌ عَلَيْهِما، ولا حاسِدٌ لَهُما؛ فَقَدْ ماتَتْ «مَنْتارا» الْعَجُوزُ الْماكِرَةُ — مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ — وَنَدِمَتِ الْمَلِكَةُ «كَيْكِي» عَلَى فَعْلَتِها الشَّنْعاءِ نَدَمًا شَدِيدًا. وَأَقْبَلَتْ على «راما» تَسْتَغْفِرُهُ، وَتَتَوَسَّلُ إِلَيْهِ أَنْ يَتَجاوَزَ عَنْ إِساءَتِها، وَيَصْفَحَ عَنْ زَلَّتِها، فَأَجابَها إِلَى طِلْبَتِها، ونَسِيَ كلَّ ما أَسْلَفَتْهُ إِلَيْهِ من كَيْدٍ وإِيذاءٍ، وَشَرٍّ وَبَلاءٍ.

(١٥) هَدايا مَلَكِيَّةٌ

أَمَّا «لَكْشَمانُ» فَقَدْ مَنَحَهُ أَخُوهُ أَعْلَى أَوْسِمَةِ الدَّوْلَةِ، وَأَسْمَى أَلْقابِ الْإِمارَةِ. وَلَمْ يَنْسَ لَهُ صَبْرَهُ ونَبالَتَهُ، وهِمَّتَهُ وشَجاعَتَهُ، كما لَمْ يَنْسَ ما أَسْداهُ إِلَيْهِ صَفِيُّهُ الْحَمِيمُ، الْقائِدُ الْكَبِيرُ «هانومانُ»؛ فَغَمَرَهُ بِنَفائِسِ الْهَدايا، تَقْدِيرًا لَهُ ولِمَلِيكِهِ «سُجْرِيڤا».

وَقَدْ سُرَّ «هانومانُ» الشُّجاعُ مِنْ هَدايا صاحِبِهِ؛ لا لِأَنَّها تَحْوِي أَنْفَسَ الْحُلِي، وأَثْمَنَ اللَّآلِئِ، وأَرْوَعَ الْكُنُوزِ فَحَسْبُ، ولكِنْ لِما تَحْمِلُهُ — على ذلِكَ — فِي طَيَّاتِها مِنْ مَعانِي الْمَحَبَّةِ وَالْوِدادِ، والشُّكْرِ على ما أَدَّاهُ منْ جَمِيلٍ، وصَنِيعٍ نَبِيلٍ.

(١٦) خَاتِمَةُ الْقِصَّةِ



وَهكَذَا خُتِمَ عَهْدُ النَّفْيِ والشَّقاءِ، ووَلَّى زَمَنُ التَّشْرِيدِ والْعَناءِ، وانْقَضَتْ أَعْوامُ الْكَرْبِ والْبَلاءِ، وحَلَّتْ بَعْدَهَا سَنَوَاتُ الْبَهْجَةِ وَأَيَّامُ الصَّفَاءِ. وَدَامَ حُكْمُ هَذَيْنِ الْمَلِكَيْنِ زَمَنًا طَوِيْلًا، يَسودُهُ الْأَمْنُ وَالرَّخَاءُ، وَتُرَفْرِفُ عَلَيْهِ رَايَاتُ السَّعَادَةِ وَأَعْلَامُ الهَناءِ. وقَدْ غَمَرَ الْإِخْلاصُ أَهْلَ مَمْلَكَةِ «كُوسالا» فِي عَهْدِ هذا الْملِكِ الرَّشِيدِ، وَأَلَّفَ بَيْنَهُمُ الْحُبُّ فِي زَمَنِهِ السَّعِيدِ؛ فَأَصْبَحَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ يُحِبُّ لِغَيْرِهِ مِثْلَ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، وَيُؤَسِّيهِ (يُصَبِّرُهُ وَيُعَزِّيهِ) فِي ضَرَّائِهُ وَبُؤْسِهِ، وَيَفْرَحُ لهُ فِي سَرَّائِهِ وَأُنْسِهِ.

ولَمْ يَقْتَصِرِ السُّرُورُ عَلَى عالَمِ الْأَنَاسِيّ وَحْدَهُ، بَلِ انْتَقَلَ إلى عالَمِ الْمَلائِكَةِ بَعْدَهُ، كما شَمَلَ طَوائِفَ الْجِنِّ وزُمَرَ الْعَفارِيتِ والتَّوابِعِ، الَّذِينَ اسْتَراحُوا مِنْ كَيْدِ زُعمائِهِمْ مِنَ الْمَرَدَةِ والْأَبَالِسَةِ والزَّوابِعِ.

وَغَمَرَ الْفَرَحُ جَمِيعَ الْكائِناتِ، وفاضَ الْأُنْسُ عَلَى كلِّ الْمَخْلُوقاتِ، لانْقِضاءِ عَهْدِ الشُّرُورِ والآثامِ، وحُلُولِ عَهْدِ الْأُلْفَةِ والْوِئامِ، بَعْدَ أَنْ قُوِّضَتْ دَعائِمُ الطُّغاةِ والْمُسْتَبِدِّينَ، ودالَتْ دَوْلَةُ الْعُتاةِ والظَّالِمِينَ.

وَلَمْ تَنْسَ بِلادُ الْهِنْدِ عَهْدَ ذلِكَ الْمَلِكِ الرَّشِيدِ، وَحُكْمَهُ السَّعِيدَ، وَكيْفَ لَقِيَ — في حَياتِهِ الأُولَى — أَفانِينَ مِنْ ضُرُوبِ الْحُزْنِ وَأَلْوانِ الشَّقاءِ، ثُمَّ جُوزِيَ — عَلى وَفائِهِ وصَبْرِهِ — أَحْسَنَ الْجَزاءِ، وَظَفِرَ بالرَّاحَةِ بَعْدَ التَّعبِ والْعَناءِ، وبالطُّمَأْنِينَةِ بَعْدَ الْفَزَعِ والشَّقاءِ.

وَما زالُوا يَتَنَاقَلُونَ هذِهِ الْقِصَّةَ واحِدًا عَنْ واحِدٍ، ووَلَدًا بَعْدَ والِدٍ، حَتَّى انْتَقَلَتْ مِن الزَّمَنِ الْغابِرِ، إِلَى الزَّمَنِ الْحاضِرِ، فَنَقَلْتُها إِلَيْكَ، وقَصَصْتُها عَلَيْكَ؛ لِما تَحْوِيهِ مِنْ عِبْرَةٍ جَلِيلَةٍ، وحِكْمَةٍ أَصِيلَةٍ، وخَيالٍ رائِعٍ، وَإِرْشادٍ بارِعٍ، وتَنْبِيهٍ وتَذْكِرَةٍ، ومَوْعِظَةٍ وتَبْصِرَةٍ.